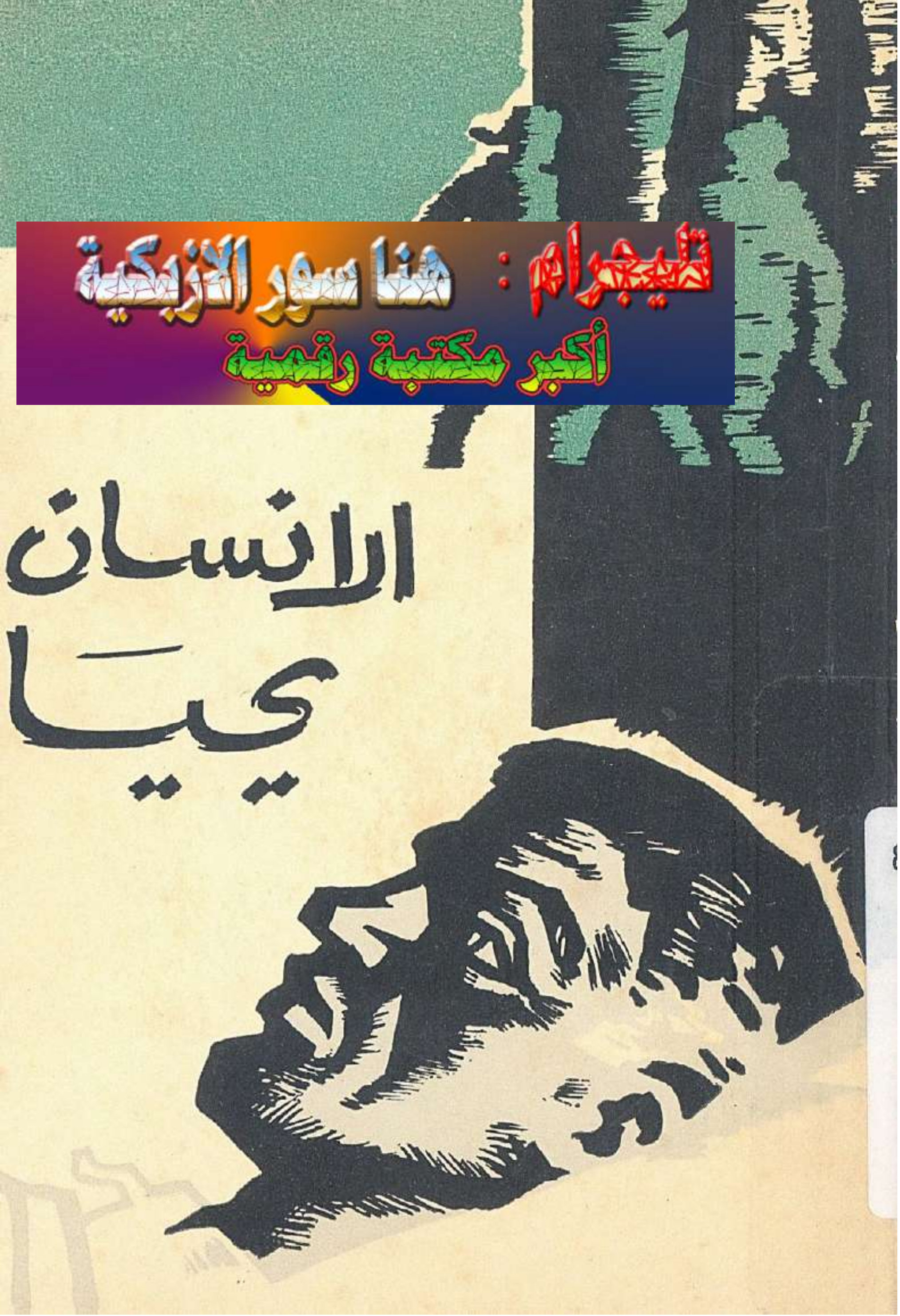


الإنسان
حيا

يضم كتابنا قصصاً لثلاثة كتاب مشهورين جداً في الاتحاد السوفييتي في الاعوام الاخيرة.

لقد دخل العامل فلاديمير مكسيموف، والطبيب فاسيلي اكسيونوف، والصحفي ادوارد شيم الى الادب بطرق مختلفة. وكما تختلف حياة هؤلاء المؤلفين تختلف موضوعات مؤلفاتهم ايضاً.

ان قصة فلاديمير مكسيموف «الانسان يحيا» هي قصة شاب متشرد فقد الايمان بالانسان، وقد اعادته الى الحياة عناية اناس كثيرين لم يكونوا يعرفونه قط. و«من الصباح حتى الغسق» لفاسيلي اكسيونوف قصة قصيرة عن افكار وشكوك طبيب وعالم شاب. اما قصة ادوارد شيم الطويلة «ملكة وسبع بنات» التي تحمل عنوان حكاية شعبية، فانها قصة شاعرية عن طفلين يتفتح امامهما لاول مرة عالم الكبار، وتتحول الخيالات الساحرة الى حياة واقعية يومية وبطولية.

وجميع القصص الثلاث تحمل فكرة واحدة — مسؤولية كل انسان عن مصير الآخرين. وهذا ما يقوله احد ابطال هذا الكتاب — «كل حياة منفردة، وحتى أصغر حياة مرتبطة بالحياة الكبيرة العامة. وكل حيوات مهداة بشكل متبادل من احد الناس ومدفوعة من قبله، ولربما في ذلك الشيء الرئيسي».

ان المؤلفين يتحدثون باخلاص وتأثر وصدق عن معاصريهم ساعين الى نقل جو الابداع والصداقة الذي يعشيون فيه ويعملون.


أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

الإنسان يحيا

ثلاث قصص



ЖИВ ЧЕЛОВЕК

(ТРИ ПОВЕСТИ)

На арабском языке

ترجمة غائب طعمة فرمان

فلاديمير مكسيموف ولد عام ١٩٣٢ . تخرج من مدرسة التعليم المعملي المصنعي. وكان عاملا في مواقع البناء في موسكو وتولا، وفيما بعد في المدن الجديدة في سيبيريا. واشتغل بحارا في سفينة تتنقل في نهر ينيسيي في سيبيريا. وفي عام ١٩٥٢ بدأ العمل في صحيفة، والى ذلك الوقت تعود ايضاً اوائل مقالاته التصويرية وقصصه. وقد اكتسبت قصته الطويلة «الانسان يحيا» المنشورة في مجلة «اكتيابر» في عام ١٩٦٢ شهرة واسعة.



الانسان يحيا

الطيبة دائماً في روحنا ، والروح
طيبة بينما الشر اكتساب .
ل . تولستوي

١

كأن جفنيَّ ملتصقان . فأفتحهما بصعوبة . ويؤذي عيني نور حاد خاطف للبصر . وتسبح دوائر زرقاء وخضراء وحمراء ، وتتكاثر . ثم يبرز وجهان من خلال

هذه الدوائر المتعددة الالوان : احدهما فتي له وجنتان منغوليتان ، وعينان متباعدتان لوزيتان ، والآخر عجوز اذبله الزمن ذو شفتين رقيقتين . ويهس فوقي صوتان خافتان وبلا حرارة :

ـ هل نيقولاي يعرف ؟

ـ لم اقل له !

ـ قولي له .

ـ لو قلت لظن انني اقيده . ها انا الد فليقرر هو بنفسه .

ـ انه اب .

ـ اب ، ثم ماذا ؟

ـ لازم يتزوج .

ـ لازم ! وما حاجتي الى زواج بدافع الشفقة ! لا يريد ، لا حاجة . سأربيه بنفسي .

ـ عندكن ، عند الفتيات المعاصرات ، عزة كبيرة ، وعقل صغير . لو في زماني لقلب ابوك ثوبك على ضفيرتك ، وضربك بالحزام على ظهرك ...

ـ ريح ثلجية ...

كنت اسمع الريح تلعب في الفناء . تارة تهدأ ،

وأخرى تنقضّ على الجدران بقوة أشد ناثرة على الزجاج جريشاً خشناً ، وكأن شخصاً يلقي على النافذة حفنات من الرمل متخابثاً . ومن خلال عصفات الريح الثلجية تنسل تمتمة مزكومة لمولد كهربائي . وفي ايقاع واحد معها يتوامض المصباح الصغير تحت السقف بشكل لا يكاد يلحظ .

ـ فتاتنا سيما قلقة جداً . يجب اجراء عملية لانسان . بينما اطال ايفان انتونوفتش اقامته في سابوروف .

ـ طبعاً قلقة ... فقد يضطرون الى قطع ساقيه ؟ تفو ، تفو ، تفو ! اعذرني ، يا الهي ...

وأسبل جفنيَّ . يجب ان اعرف كل شيء عن نفسي عن بعد . لقد تعودت على ذلك. اين انا ، وكيف جئت الى هنا ؟ ان آخر ما علق في ذاكرتي هو سقوط حارق لا نهاية له ...

كلمات مثل اوراق جافة توشوش في اذني :

ـ ايفان انتونوفتش غير موجود ، هي المسؤولة لا غيرها .

ـ تبعد سابوروف حوالى اربعين كيلومتراً ، في مثل هذا الجو السيئ والظلام ...

وجهه .

ـ هذا ما اقوله ، ربما يضطرون الى قطع ساقيه .

ـ ربما هو من البعثة . جميعهم ذوو لحى .

ـ نعم ...

ويهدأ الحديث ، وتبلغ وعيي اخيراً الفكرة الرهيبة لكلمات « ربما يضطرون الى قطع ساقيه » ... اذا كان ذلك ، انتهى كل شيء ـ تمت اللعبة . واندفع الى الامام رغم ارادتي . ولكن الماً حاداً ممضاً يلقيني حالا في فراغ يدير الرأس .

٢

... واخرج الى مقدمة البيت . وفي يدي محفظة اوراق . والى الامام ثلاث درجات مدروسة الى آخر دقائقها ومنها يمتد درب آجري مضلع الى باب السياج قاسماً الفناء الى قسمين . والاكوام الهرمية للفضلات من مناجم الفحم ، وهي مختلفة الاعمار محيطة كالحلقة يوجنوغورسك الواطئة ، تدخن كما كانت في الامس ،

ومثلما في الامس أيضاً تتوافد علي من جميع الجهات اصوات والوان مألوفة منذ الطفولة : تنادي الديكة ، وبياضات منشورة على حبال بمحاذاة السياج ، وتطاير زغب اشجار الحور ، وكما في الامس ايضاً انا ذاهب الى المدرسة ، وعلي ان اتردد عليها زمناً طويلا آخر ، ثلاثة اعوام كاملة . ولكنني أشعر ان شيئاً في داخل نفسي قد تغير بشكل حاد . اذا كنت من قبل قد أندمجت بكل ما حولي متصوراً نفسي مجرد جزيئة فيه صغيرة وغير ملحوظة تقريباً ، فاليوم كأنما انتزعتني من الظرف المعتاد حزمة ساطعة من النور . وكل خطوة ، كل نفس من انفاسي الآن وليد التوجس بتغير قريب لا يُرد . ان اول ما حدث انهم اعتقلوا ابي في تلك الليلة .

وكان ذلك لا بد ان يحدث . منذ العام الماضي كان يتردد علينا ضيوف غريبون . ضيوف ذوو وجوه متشابهة ، وحتى ذوو اصوات متشابهة : مبحوحة ومكبوحة . ثم ان ايديهم كأنما كانت ترتعش . ان تلك الايدي أخذت ، ووضعت ، وقلّبت ، وفكت ، وفعلت كل ذلك بحدة وعصبية ، وكأنما كانت تخاف ان تحرقها الاشياء . ثم شرب الضيوف فودكا ، وتشاتموا

بقذارة . بينما كانت امي تئن فقط تحت البطانية متشكية :

ــ كفاية ، يا الكسي ، أشفق على الاطفال !

هزَّ ابي يده في كسل :

ــ نامي .

وفي الصباح كان ابي يتمشى في البيت بهدوء، بل وشاعراً بالذنب كما يبدو ، ناظراً الينا جميعاً مستغفراً .

والآن انتهى هذا . وظهر ثلاثة اشخاص والصباح على وشك ان يطلع ، وأفزعوا البيت كله . وبقيت غالكا ، اختي الصغرى ، وحدها لم تستيقظ . كانت تحلم بآخر احلامها قبل طلوع النهار . وكان رجل الميليشيا الواسع العينين ، الواقف عند الحائط بين الباب وسرير غالكا يعدّل ، بين الحين والآخر ، البطانية التي كانت تنحسر عنها . ونبش الآخران المرتديان ملابس مدنية الدولاب وجرارات الصوان ووضعا الاشياء في كومتين وكأنما يلعبان لعبة . وحين انتهى كل شيء كان في أعلى الكومة الكبيرة بنطلون ابي عليه بقع صدئة هي آثار ازرار حديدية ، في أعلى الكومة الصغرى البومنا العائلي بجلدته المتآكلة ، وفيه تفسخت زهور

مجففة وصور جميع اقاربنا الى سابع ظهر ، على حد تعبير امي . ثم اشار احد المدنيين برأسه الى ابي ، وقال باقتضاب :

ــ تحرك ، يا تساريف !

ولم يقدر ابي ، مهما حاول ، ان يحشر قدمه في حذائه . كان الحذاء يخرج من القدم وكأنما هو كائن حي . وكانت امي تمسك بقائمة الدولاب بكلتا يديها ، وترتجف بكل بدنها رجفة دقيقة . وألذع ما في الامر انها لم تبك ، وتهتز ، بل كانت ترتجف بتشنج . ولكن الشيء الرئيسي هذا البنطلون المبقع ببقع صدئة من الازرار الحديدية ، والبومنا العائلي الذي برزت منه صورة مصغرة لاح عليها جزء من عبارة « الى فيتشكا من ال ... » .

... ويدعوني صوت مألوف جداً لي :

ــ سيريوجا !

انها زينا جارتي في مقعد الدراسة . لها ضفيرتان مرنتان كأنهما من مطاط ، وأنف منمش له منخران مفروشان قليلا ، وعينان مستديرتان تنمان دائماً على دهشة في اعماقهما . وزينا تعيش في بيت مقابل لبيتنا ،

ولهذا نسير الى البيت والمدرسة سوية . او ربما ليس لهذا السبب فقط . فقد كان تلامذة صفنا يتحرشون بنا قائلين : «عروس وعريس» . وزينا في مثل هذه الاحوال تكتفي بهز كتفها الصغير النحيل بعناد، اما انا فأشرع بالعراك . وانا الآن ألمحها تقف امامي مطرقة برأسها . ويرسم طرف حذائها ببطء على غبار الرصيف خطوطاً متعرجة :

– قالت ماما : لا يجوز ان نسير انا وانت سوية .

واتابع انا ببلادة خطوط زينا المتعرجة :

– لماذا ؟

– انت نفسك تفهم .

– أفهم .

واستدير ، وأمشي . وتلحقني زينا . ويصلني صوتها من بعيد :

– ولكنني أجلس معك على مقعد واحد على اية حال والشرف الطلائعي !

دعها تجلس اذا كان هذا يعجبها . وأحس غصة لاذعة في حلقومي . وفي الدرس يتعثر سن قلمي بين الحين والآخر ناشراً رشاشاً من الحبر الازرق . وتسقط على

كتفي يد معلمنا في درس الادب فاليري نيقولايفتش « ذي الشفاه الثلاث » . انها يد قطنية رخوة .

ـ يجب ان تفكر ، يا تساريف !

وانا أكره هذا الصوت الخافت المتحبب . وحتى دون ان أرفع رأسي أرى امامي بوضوح مقرف وجهه اللحمي الذي كأنما صبَّ على استعجال بشفته السفلى المنشطرة ، وسترته الصوفية الخَلَقة التي تناثرت عليها قشرة الرأس بكثرة ، ويده الرخوة بعروقها المنتفخة تحت شعر أصهب . أريد ان أرميها عن كتفي ولكنني أخفض رأسي اكثر . والآن لا يعنيني احد . وأحاول ان لا أنظر الى المعلم . أخاف ان أقذفه بالمحبرة .

الا ان الصوت يغمرني ، وأشعر وكأنني أختنق به ، وكأنما في نسيج عنكبوت كثيف لزج .

ـ اي ... لا أفهم ، يا تساريف ، لا أفهم ... انهض ، رجاء. معك يتحدث مربٍ ... حقاً ، لا يليق هذا التصرف لطليعي ...

وتنفجر الغصة اللاذعة في حلقومي فجأة ، وأقفز ، وأخرج من الصف لا أنظر الى احد .

في الشارع يسح مطر دافئ . وأسير بمحاذاة حدائق بيتية كثرت فيها الخضرة ، شاداً جمعي يدي ، كارهاً العالم كله . والمطر يزداد هطولا ، ووجهي مبلل به . الا ان المطر لسبب ما مالح . انني اخاف ان اعترف : لقد بلغت الرابعة عشرة من عمري .

انا لا اريد العودة الى البيت . فالبيت الآن مثل الكنيسة المهجورة عند بركة خيتروف ، فارغ مقفر . وابي وحده كان قادراً على ان يملأ لي نوافذ بيتي بالدفء والنور . وكنت بدون ابي اشعر دائماً بأنني زائد على الدنيا قليلا . كنت على الدوام أعيق شخصا ما ، او أعرقل عملا ما . يقولون انني ولدت ناقص النمو ، وكنت أصرخ دائماً . ولهذا فان نفور اهل البيت مني امر معتاد . لا اعرف ماذا كان ابي يرى فيّ ، الا انه كان يتحدث اليّ حديث الند للند دون ان يلكن بلسانه كالطفل او يكيف نفسه عليّ . فكنت اجازيه بالشيء الوحيد الذي كان عندي : الوفاء .

انا اكره العالم كله . اكره كل اولئك الذين اعطي لهم الحق في ان يضربوا بقبضاتهم على المناضد ، ويضعوا العلامات ، ويصفروا في مفارق الطرق مطالبين ، ويجعلوا

الناس « يوقعون على التسلم » ... انا لا اريد! لا ارغب ! فاذهبوا جميعاً الى الشيطان ! ..

قدماي انفسهما تقودانني الى جسر السكة الحديدية القديم عند المعبر . كنت دائماً احب ان انظر الى القطارات الهادرة التي تزيد من سرعتها ، وتختفي وراء أقرب منعطف . وفي مثل تلك اللحظات كان العالم فيما حولي يختفي عن الوجود في عيني .

... على شاطئ شديد الانحدار عند ثلاث نخلات معمرة يوجد كوخ وحيد. وتحت المنحدر يهدر المحيط ، والنجوم الكبيرة الدافئة تحرس السكون الاستوائي فوق السقف المصنوع من البامبو . في جوف الكوخ لا تخمد النار الكئيبة ابداً . ورقع الضوء الطويلة تتحرك بهدوء على الجدران ، والحصران ، ووجه غارق في تفكير . انها تنتظر . واسمها تامينغا ، ابنة المنقار النسري ، الزعيم العظيم لقبيلة اغوـاوغا . وكثير من صيادي القبائل المجاورة يخطبونها . الا ان تامينغا صامتة . حلّت السنة الثالثة وهي صامتة . وتراجع الخطابون من ذوي الصيت الكبير يهزهم حزنها العظيم .

وقال ابوها المنقار النسري صاحب القدرة كلمات حزينة :

ـ يا ابنتي ! ها هي السنة الثالثة تحل وانت صامتة : يخرج احسن المقاتلين الفتيان منك مدحورين . وانا عجوز ، وقريباً سيدعوني اله الشمس الى وليمته الخالدة ، وليس عندي من اعهد اليه بمصير قبيلتي . استحلفك بالنجم الذي يضيء فوق بيتنا ، بأن تشاركيني احزانك .

عندئذ تقول تامينغا الفاتنة لابيها :

ـ يا ابي ! أحكي لك اسى قلبي : في مكان بعيد جداً من هنا ، في ذلك الجانب من المحيط ، وفي مدينة صغيرة لها اسم غريب هو « يوجنوغورسك » يعيش شاب نبيل يدعى « سيريوجا تساريف » . ليس له زورق ، وليس له ما يعبر عليه المحيط. ولهذا نحن مضطران الى ان نتحابب عن بعد حتى تابوت القبر . هذا كل ما استطيع ان اخبرك به ، يا ابي !

لم يجب المنقار النسري صاحب القدرة ابنته بشيء : فان الثرثرة تعتبر عاراً في قبيلة اغوـاوغا . وما كان منه الا ان ارتدى نعليه ، وركب في أكبر قواربه .

اما تامينغا الرائعة فتخرج الى الساحل ، وتطيل النظر في اثر ابيها الراحل بعينين مستديرتين ترتسم الدهشة في اعماقهما دائماً ، مرسلة ضفيرتيها المرنتين كالمطاط على كتفيها علامة على الحزن ...

ويعيدني صفير قطار اجش الى الواقع . وفي الاسفل يمر قطار للبضائع . وفي فسحة الفرملة في آخر عربة رجل ضئيل غارق في الرداء المشمع يتبوّأ مكانه برصانة ، ويزيد القطار من سرعته ويبدو لي الرجل القاتم مثل فراشة توشك ان تخرج من شرنقة ، والرأس يتحرك بعناد خارجاً نحو الضوء . الا ان وراء ضوء مصباح الاشارة الاحمر يطبق ضباب رمادي . ويتملكني الحسد حتى يدر الدمع من عيني : ان ذلك الرجل الضئيل ذا المشمع يجلس الآن في فسحة الفرملة للعربة الاخيرة ، يلقي نظراته هنا وهناك ، وماذا عليه حقاً سوى ان يجلس وينظر دافئاً في مشمعه . وفي المدى البعيد لم يكن يُسمع صفير ، بل شيء ممطوط ما بين الزفير والانين . انه القطار يسير طارقاً على مفاصل السكة الحديدية كما يطرق انسان درجات السلم ، مبتعداً الى حيث تنتهي سماؤنا الرمادية . او لعلها تنتهي وراء اول منعطف ؟ اغلب الظن انها تنتهي وراء اول منعطف .

وفجأة أشرق بالهواء المشبع بالماء . وكأن الصفير البعيد يلمس في نفسي وتراً لم يمس بعد ، ويستجيب هذا الوتر ، وينبض الدم مجنوناً . وبعد دقيقة اركض بين العربات متخفياً عن اعين المرشدين والمفتشين . واخيراً يبتلعني فم العربة الفارغة مستضيفاً اياي في جوفها . وفي العربة رائحة قش وروث ، ونسيج ليفي مبلل متعفن . ومن خلال غلالة المطر تحت السدة تتوامض اضواء يوجنوغورسلك . وانا مبتل حتى العظم ، الا انني اشعر بالدفء والطمأنينة — اغلب الظن ان ذلك عائد الى انني الآن استطيع ان لا افكر كثيراً ، وبشكل مضجر في موضوع واحد ، موضوع لا يتغير ... وتبدو لي الحياة الماضية في تلك اللحظة حلماً ، بل ومضحكة قليلا . وتمر امامي وجوه : وجه امي المتبرم ، ووجه فاليري نيقولايفتش الجهم ووجه زينا المندهش ووجه ابي المتحير . واشفق عليهم بتسامح فعل الكبار . نعم ، اشفق فقط .

ويزيد القطار من سرعته . ومن خلال مزق الغمائم المتبعثرة تحت سقف العربة تبدأ النجوم بالترائي . انها دافئة في ظني على اية حال .

٣

انا في المفارش مثل فأر في كيس تبغ مبلل . يبدو وكأني اتقطر ماء الا ان فمي جاف ومرير . وجنب السرير الملازمة العجوز تغالب النعاس . ومن عدة الحياكة على ركبتيها امتد خيط الى لفة الغزل التي تدحرجت تحت السرير . والعاصفة الثلجية لم تعد تهاجم الجدران برشقات ، بل تتقحم تقحماً ، ويرتفع هدير متماسك موصول مثل نفخ جيد في موقد .

– اريد ان اشرب ، ايها الام !

وتجفل العجوز ، وتلتقط عدة الحياكة . ويبدأ مخرزا الحياكة يلمعان في يديها سريعاً يعقد احدهما على الآخر عقد صغيرة .

– قلت اريد ان اشرب ! ..

وتفطن العجوز وتقول :

– بلمح البصر ، يا عزيزي !

تنطق بـ « عزيزي » ماطة آخر مقطع ، وبذلك تكتسب الكلمة نفسها بين شفتيها معنى طيباً بشكل مدهش. وأشرب الماء بنهم ، بينما تمسك العجوز بالكوب ، وتقول مترنمة :

ـ اشرب يا عزيزي ، فالماء قوة . كل شيء يتوقف على الماء .

ـ اين انا ، ايها الام ؟

ـ كيف اين ؟ في كيريلينو ، في المستشفى ، والا ماذا تظن ؟

ـ هل فرخنرتشينسك بعيدة ؟

تمسح العجوز العرق من وجهي بفوطة وتقول :

ـ ايه ، اين انت من فرخنرتشينسك ! انها تبعد الف كيلومتر عن هنا ، لا أقل ... هل عندك اقارب هناك ؟

ـ نعم ، يبدو ...

وتمطق بشفتيها الذابلتين حناناً :

ـ بعيداً ...

واستخلص : لو لم اضع الطريق لكنت الآن في منتصف الطريق الى شاتسك . ستمائة كيلومتر ليست كثيرة على شهرين من الحنين الموجع في التايغا . حمى لعينة ! انها دائماً تتسلل اليّ في أكثر الاوقات حراجة . ان نيقولاي باتيفون هلك ، انا واثق من ذلك . عليه اللعنة ، هذا جزاؤه . ولكن أحقاً انها النهاية ؟

لو أحتفظ بساقي فقط . واذا لا استطيع ؟ سيان عندي ، سارحل . سأمزق حلقوم الناس باسناني ولكن سارحل . الاحسن هناك ، في التايغا ....

واسمع في الممشى خطوات ... نسائية . واغمض عينيّ . واصغي بكل كياني . ومرة اخرى يبدأ الهمس يسحر فوق رأسي .

ـ كيف الحال ؟

ـ انه يعود الى الوعي ... استيقظ ، وسأل : اين انا ؟ يبدو انه من اهل فرخنرتشينسك .

ـ ما العمل ، يا تروفيموفنا . لا أدري . لا يوجد اتصال مع مركز المنطقة ، والعاصفة الثلجية ستظل ثلاثة ايام اخرى . وهذا الرجل على وشك ان يموت ... يا الهي .

ـ ربما يأخذه احد على زلاقة كلاب ؟

ـ مَنْ يأخذه ؟ في مثل هذه العاصفة لا يذهب الانسان الا الى حتفه .

ـ انه يموت ، في اغلب الظن ، والا فستقطع ساقاه ، وذلك اسوأ ... الظاهر انه صاحب عائلة . ان سنه مناسبة كلياً .

ـ وليكن ما يكون ، ولكن انتظري . انا أتعذب مع فرفارا منذ ثلاثة ايام .

ـ لا تلد ؟

ـ انها امرأة قوية ، ولكنها لا تلد .

ـ لا بأس . لو كان المولود نحيلا لخرج حالا . يعني انه مثل ابيه .

ـ ابوه ... يكاد ان يبيت قرب الباب .

ـ انتظري واحداً مثله ايضاً .

ـ من هذا ؟

ـ صاحبنا نيقولاي .

ـ ولكنهما لم يسجلا عقد زواجهما .

ـ هذه موضة اليوم .

ـ اوه ، الشباب ، الشباب ...

وتنغرس في روحي بهذه الكلمات الهادئة التي تبدو وكأنها بلا عاطفة حياة غريبة لا أكاد أفهمها .

٤

... انا لا احب الرقص . بل واكثر ، انا أكرهه . وكراهيتي للرقص ترجع الى سبب مقنع هو انني اريد ان انام . الا ان ازواج الراقصين والراقصات يمسحون

الارض بنعالهم كل مساء من الساعة السابعة حتى الواحدة ، والجوقة النحاسية فوق رأسي تؤلف لهم — من القرقعة والطرق والعويل — انغاماً ترهق النفس كلها . وأتقلب من جنب الى جنب في وجاري تحت خشبة المسرح ، ولا استطيع ان اغفو . اللعنة على ذلك الشخص الذي هز مؤخرته لاول مرة على انغام الموسيقى ! !اريد ان انام ، اريد ان انام بشكل فاضح . كيف لا يضجرون ؟ قولوا لي هل السرور عظيم في ان يمسك واحد بالآخر ، ويجرجروا اقدامهم من طرف الى طرف على ارضية خشبية ؟ في العادة يصعقني النوم الكاتم للانفاس ، الثقيل — رأساً ، وبضربة واحدة . وما ان تنسل الشمس من خلال الخصاص الضيق حتى أنزل من مكمني ، واركض الى البحر . وينبسط البحر امامي كوحش هائل ، ولكنه طيب وبلا وزن . وانام الصباح ضئيلا وديعا تحت رقرقة الماء الأخضر الفاتح . ولاحلامي عند الفجر اجنحة خفيفة سريعة ليست كاحلام الليل .

ويبدأ يومي من محطة القطار . الوح بلفة الحبل فوق رأسي ، واخرج راكضاً الى قطار من تبيليسي في الساعة السابعة :

— فيس اوندا موشا ؟ فيس اوندا موشا * ؟

ثم في الساعة الثامنة بالضبط أكون عند بوابة محل الحلواني داديكو شوميا المينغريلي الحليق الرأس الجهم ذي الصدر الناتئ الكثيف الشعر تحت سترته المفتوحة. واساعده على نقل سلال البضائع الى المدارس الثلاث المجاورة. وفي الساعة الثانية عشرة انقل هذه السلال الى البلاج، وعند المساء الى المنتزه. ويعطيني شوميا، لقاء العمل، ثلاثة روبلات، ويضمن، بالاضافة الى ذلك، سلامتي مسمياً اياي احد اقاربه الابعدين. ومن حسن الحظ ان بشرتي قد اسودت من تلويح الشمس، وصرت أتكلم الجورجية منذ وقت بعيد. وفي الفترات بين عمل وآخر انال رزقاً في السوق. فهناك، في انبوب المياه، اخبئ عصا في طرفها مسمار. وحين اتسلح بها اتمشى متظاهراً بخلو البال بمحاذاة دكاكين الفاكهة. فابدو في عيون من لا تجربة له شخصاً متزناً: صبياً يمسك بعصا. ولكن ما ان يلتفت البائع وراء منصة دكانه حتى تنقذف عصاي كالحدأة

---

* من يحتاج الى عامل ؟ (باللغة الجورجية) .

وينغرز مسمارها المنقاري بما اختبر مقدماً : تفاحة او ثمرة طماطم ، او قطعة لحم ، وفي زاوية مخفية من السوق ابيع ما احصل عليه عند عجائز شائخات يعشن نهاية حياتهن الطويلة على روبلات التقاعد . وفي نهاية النهار اجمع عشر روبلات او أكثر .

ولم تكن مدة تشردي طويلة : لم تمض الا سنة ونصف السنة على رؤيتي الاخيرة لانوار بوجنوغورسك فوق السدة . الا انني قدكسبت في دنيا التشرد احتراماً ملحوظاً على استمرارية مكاسبي ، ومقدرتي على الافلات من الوقوع في الشرك . وانا نفسي أشعر بانني أرفع من عالم المتشردين ، ولكنني احاول ان لا اظهرهذا ، لئلا يضربوني . ولا تعيق حياتي الموزونة الا نوبات قصيرة ولكنها حادة من الحمى التي انتابتني منذ الاشهر الاولى من اقامتي في الجنوب . وفي العادة اشعر ، عند الظهر ، بضعف غدار في قدمي ، ووهن مرتعش . وهذا عندي علامة على دنو النوبة . فاخرج الى ساحل البحر ، واحيط نفسي بالحصى الحار ، واستلقي . وتهزني قشعريرة الملاريا . والحصى يحرق جلدي فقط دون ان يدفئ او يهدئ . وبعد ساعتين تقريباً تنتهي

النوبة ، ولا يذكرني فيها الا الوهن الذي ينتاب جسمي كله حتى المساء تقريباً .

وفي المساء انسل الى مأواي متحاشياً الاماكن المضاءة . وهناك تحت المسرح وانا منفصل عن العالم بحاجز خشبي اشعر بنفسي اميراً مالكاً : انا رأس كل شيء ، وسيد كل شيء . واحلم بشيء واحد: بساحل المحيط العالي المتوج بالنخلات الثلاث . فقط لو ان الاوركسترا لم تكن فوق رأسي ! ما أشد نفوري من الرقص ، بل كراهيتي له !

٥

العاصفة الثلجية ما تزال تهب وتهب السنة نارية من الصقيع بالرسوم المتجمدة على زجاجات النافذة المغطاة بستارة من الشاش . ويخيل اليّ انني متحجر في الشدادات الى حد الموت ، وانني اواصل الحياة بعقلي فقط ، الجزء الضئيل من جسمي . ولا احد على مقربة مني . الا ان باب الممشى يفتح ، ويبلغ سمعي صوتان صادران من هناك . احدهما رقيق رنان مألوف لي ، والآخر اسمعه لاول مرة ، فتي هش ، رجولي .

الاول :

ـ هذه الكلمات قلتها لي مائة مرة ، بينما يوم امس بقيت في غرفة المطالعة حتى الليل تقريباً ... ثم ذهبت لتودعها . هل قولي غير صحيح ؟

الثاني :

ـ يا لغرابتك يا غالكا ! انا موكل بالاعمال الاجتماعية . وسكوريكوفا جديدة ، ومن اهل المدينة. اذا لا نجذبها الينا ينتابها الخوف ، وتهرب . ثم انها ... غريبة عن المنطقة .

ـ اذا كنت تجذب كل الناس ، فسأبقى غريبة عن هنا .

ـ أقول لك : هيا نتزوج .

ـ تصنع معروفا ؟ أحقاً هكذا يخطب الناس ؟ مرة واحدة وينتهي الامر . آه ، يا لك !

ـ وماذا في ذلك ؟ في عصرنا يجب ان يجري كل شيء بلا تأخير ودون اقوال زائدة . وها انا اقول لك : لنتزوج وليكن غداً .

ـ آه ، منك يا بطل !

ـ مرة اخرى تضربين على نفس الوتر ... على العموم كيف هو ؟

ـ سيموت بدون ايفان انتونوفتش . عنده التهاب حاد . انه يعيش على المخدر . والا لظل يصرخ عالياً .

ـ جرته جراً . ثم يموت . هذا جزاؤك ايها الاخ نيقولاي ابن بيوتر. والقرية مملوءة بالناس ، وسننظر جميعاً باطمئنان كيف يموت انسان امام اعيننا ...

واضحك بسخرية . يا للنعامة الصغيرة ! يجعل لاعتزازه بنفسه اساساً انسانياً . انه لا يذهب بنفسه طبعاً بل « ينظم الناس » . وسيبقى هنا ، يتلمس الفتاة ... فلو تعرف ، ايها الشاب ، مَنْ انقذت لابتعدت مسافة اربعين كيلومترا!

والقي نظرة على الممشى . ان الشاب واقف مسنداً كتفه على الحائط . انه مديد القامة طويل الشعر ، له ذقن مسطح لا ينم على ارادة ، يفرك بقوة حزام مريوله الملقى على كتفه باهمال .

ـ سأتحدث مع الاولاد . اذا خافوا ذهبت وحدي .

آه ، ما اسرع ما تغير صوت الفتاة ! ولا يبقى اي اثر للاهمال المصطنع السالف . بل واشعر ، دون ان انظر ، كيف ترتجف الى آخر شعرة من اعصابها .

ـــ يا نيقولاي ، بحق الاله لا تفقد عقلك ! من يسير في التايغا بمثل هذا الطقس السيئ ؟

ـــ انت لا تفكرين كما يفكر الناس على اية حال . ان انساناً يموت . أتفهمين ؟

واضح ان الشاب لا يهدهد الفتاة ، بل رعبه الخاص . الا انني اتسمع الى الحديث بتعطش : فبم سينتهي ؟ لم يكن يرهبني الموت ، بل احتمال « قطع الساقين ». فانا لا أكترث بالموت. انا ، كما يبدو ، كائن بدائي التكوين . في السجن شرح لنا زياما « الروائي» الواسع المعرفة ان الكائنات البدائية وحدها تنظر الى الموت بلا رهبة ، ولهذا تنجو في أحرج الظروف . نعم ، لقد نجوت مرات كثيرة حين مات آخرون . على الأقل عندما كنت في الجنوب ، او في الاسر . ولكن أبقى بلا ساقين ! انا لست دودة ، ولا استطيع العيش بنصف واحد . واذا كان من الممكن ان أعتبر نوعاً بدائياً ، فعلى الأقل ام اربع واربعين : اذ يجب علي ان اجيد الركض .

ويصبح الحديث في الممشى خفيضاً ، وبلا معنى تقريباً .

هو :
ـ هل تفهمين ؟
هي :
ـ افهم .
هو :
ـ هذا ما يجب ، يا غاليا .
هي :
ـ هذا ما يجب ، يا كوليا .
هو :
ـ لا احد غيري ، يا غاليا .
هي :
ـ لا احد غيرك ، يا كوليا ...
ان ذلك مثل صدى تردده الجبال .
واغفو على ترجيعاته الهادئة ، ولكن ـ يا للشيطان ، ان آخر ما اشعر به تكدر . تكدر مم وممن ؟

٦

... في الايام السالفة كنت اعرف مأواي بروائحه المعتادة ، روائح الاوراق المتفسخة ، والخرق القديمة ، والالواح الخشبية المتعفنة . واليوم تخون حاسة الشم عندي .

افرغنا ، انا وبعض المتشردين ، السمنت في المحطة لرجل واسع التدبير ، فسدَّ أنفي غبار لزج سداً قوياً . انه عمل جهنمي : نصعد الى العربة اثنين اثنين ، ويقذف كل واحد خمس عشرة مجرفة تماماً ، ونلقي انفسنا في الهواء حالاً . وعند المساء خارت قوانا جميعاً ، ولكن كل واحد منا كسب ثروة كاملة : ثلاثين روبلاً ! ونأكل على حساب صاحب العمل الى حد التخمة . وبعد منتصف الليل يخرج الجميع بحثاً عن النبيذ ، بينما أجر قدمي عائداً ادراجي الى البيت راضياً بشكل شيطاني . فمثل هذه السعادة لم تقع من نصيبي قط . وكان الرقص قد انتهى منذ وقت طويل . وأعثر على اللوحتين المرغوبتين ، واباعد بينهما . وفي الظلام اتلمس وجاري — واسحب يدي بسرعة . هناك شخص ما . وتمتم هذا « الشخص » بنعاس وسكر :

— استلق . انا لا اوذي .

وتبدأ مطارق صغيرة ضارية تدق في صدغي بعنف . انا لم اعرف امرأة قط . في الطفولة كانت تلك الفتاة ذات الضفيرتين ، كنت احمل حقيبتها ، وفي فترات الاستراحة أقاسمها التفاح . ثم لم تبق الا حكاية حزينة

عن النخلات الثلاث المعمرة . حقاً ان المتشردين من مثل عمري كانوا تبجحون امامي أكثر من مرة بمغامراتهم الغرامية ، وحكوا التفاصيل . وكنت غالباً ما ارى بعيني بنات الشوارع ممن أكبر سناً بينهن يخرجن مع اللصوص في الظلام الى ساحل ريوني . ولكن ماذا كان يعنيني من هذا كله ؟

واسمع ثؤاباً ممطوطاً ، ويبلغ أنفي زفير خمري عفن .

ـ ماذا بك ؟ ألعلك مشمئز ؟

وتتلمسني يدان رطبتان في الظلمة ، وتتوسلان وتدعوان . وأبعدهما مختنقاً ، الا ان قوة لا تغلب تطغي على روحي . ويدهمني دفء يدير الرأس ، ومعه كلمات مجردة من معانيها تقريباً ، كلمات رهيبة مثل حفيف الغابة في الليل ، كلمات رقيقة ، ورجراجة مثل دخان البحر في الصباح ...

وتوقظني في الصباح . واحاول ان اتجنب النظر اليها ، واتمتم عابساً :

ـ ماذا تريدين ؟

ان لها ضحكة سمحاء .

ـ يا لك ! هذه اول مرة ربما ؟ بالطبع . لاول مرة . انا اعرف .

ـ اخرسي ! ..

ـ اوه ، يتصور نفسه اميراً ! حتى دون ان يقول شكراً . كنت سكرى .

كانت تبدو في نحو الخامسة عشرة من عمرها ، او السادسة عشرة على الأكثر . الا ان الغضون الاولى قد تشعبت من عينيها في حزمتين . وعيناها ذاتهما كبيرتان رماديتان مثل حصاتين مدورتين من الساحل تماماً متوقدتان من الداخل بضوء صاف طيب . انهما تبدوان في الوجه الضامر المغطى ببشرة رقيقة رمادية غير حقيقيتين تقريباً . وارى شيئاً غامضاً فيها ، ربما هو الطفولة ؟ ..

وتشرع جارتي بتمشيط شعرها ، ويسقط شعاع الشمس المتسلل من خلال الخصاص بين الالواح على ذراعها المرفوعة . وتبدأ البشرة الشاحبة عند المرفق تلمع لدى التعرض للضوء ، وارى جميع العروق تحتها . وتمس قلبي رغبة في امتنان لم اعرفه من قبل :

ـ لماذا انت هكذا ، ها ؟

قالت وفي كلماتها نفس تلك السخرية المريرة :

ـ لا بأس، ستعود ... لو أكسر خمار البارحة !..
هل عندك شيء يؤكل ؟

وأضع امامها على خرقة اقراص ذرة صفراء وطماطم وملحاً .

ـ وتشربين ....

ـ الكلب يولول من الحنين ، وانا انسان كما يبدو .

ـ اذهبي الى دار المتشردين .

ـ كنت هناك .

ـ انت تكذبين ...

وترفع الفتاة الى الاعلى قبضة صغيرة قذرة مهددة . واحدق فيها . واقدم لها تفاحة ، ومرة اخرى يرتعش قليلاً في داخلي شيء ما بعيد قديم مطمور ، ثم يهمد في الحال .

وتقضم التفاحة باسنان حادة كاسنان السنجاب ، وتجمع قدميها تحتها حتى تمس ركبتاها كتفي ، وتبدأ بالكلام بسرعة وبحرارة ولهاث :

ـ اسمع ، كنت بالامس مع شخص . والظاهر انه لص ، ولكن من الشرفاء : متأنق للغاية. اسمه البرت ايفانوفيتش . بعد كل شيء اقترح علي عملاً . قال لي

انه بحاجة الى نحاف مثلي . للسرقة في البيوت في اغلب الظن . يقول ، اذا تقدرين تعالي انت وثان ثالث . وفي الحال فكرت فيك ايضاً . فانا اعرفك منذ مدة طويلة ، واعرف وجارك . لاحظتك منذ الربيع . انت تختلف عن الجميع تماماً . لا تسرق ثم انك وحيد ... وانا ايضاً احب الخروج الى البحر صباحاً ... طلب البرت ايفانوفيتش ان تذهب اليه اليوم عند حلول المساء . وقد اعطاني عنوانه . تعال معي ، ها ؟ سأصير لصة ، على الأقل عند ذاك لا يتحرش بي اي انسان ... لنذهب ، ها ؟

— لا ، لست بحاجة الى مثل هذا العمل ... يكفيني ما انا فيه .

— وماذا ستعمل في الشتاء ؟

— اي شتاء هذا ! لا شتاء هنا مطلقاً . سأقضي الشتاء تحت خشبة الرقص . بل سيكون ذلك أحسن اذ لن يكون هناك رقص ، وخطر الوقوع في القبضة أقل .

— من الصعب ان تكسب رزقاً في الشتاء ... اذا لا تريد ان تكون معي هكذا لا اضايقك . اريد فقط ان اجد شخصاً قريباً الى جانبي .

ـ انت غريبة ، فأي شخص قريب لك انا ؟
وتبتسم :
ـ انت الآن قريب .
ـ لا ، لا حاجة بى الى هذا الشغل .
ويشع من عينيها مثل حنين الكلبة .
ـ ولكن ، ربما هو ليس لصاً على الاطلاق !
فليس معروفاً ماذا يدعونا اليه . يقول انه سيعطينا لباساً وحذاء وشراباً وطعاماً قدر ما نريد ، ومسكنا !
واستسلم دون ارادتي :
ـ حسناً ، لنر .
ويشع وجهها بفرح شديد بحيث اشعر في كل قطرة من قطرات دمي مهما تكن ضئيلة بمبلغ ما لقيتُ من اهانة !
والمدينة كلها في الصباح خليط من قطع الظلال والشمس . والبحر يتماوج فوق السطوح الساحلية تماماً . ويلوح وكأنه يتنفس . والساحل ما يزال مقفراً . واخرج معها الى الساحل الخالي ، ونستلقي على حصى ما يزال بارداً ، والسماء اللطيفة تسوق فوق رأسينا قطعان السحب الخفيفة . وانظر الى اغباش الافق الشمسي ، ولكنني

لا ارى وراءه ساحلاً عاليا ذا نخلات ثلاث ، ولا وجهاً حزيناً جمده الترقب . فان الحكايات لا بد ان تنتهي في وقت ما .

٧

كم من الوقت غفوت ؟ ساعة ؟ سنة ؟ ساقاي توجعانني وجعا غير حاد ، وكأنني وقعت في ماء مثلج . والممرضة البارزة الوجنتين في الخفارة . انها تنظر في الشباك بتوتر . ماذا ترى هناك ؟ وبماذا تفكر ؟ وتجفل حين تشعر بنظرتي اليها ، وتستدير . ومن وجهها الضامر قليلا تنزلق شبه ابتسامة الى شفتيها المتورمتين :

ـ هل انت صامد ؟

ان سؤالها هذا ألقته بحكم العادة كما يبدو . وكل روحها في الظلمة وراء الشباك . ولكنني لست بحاجة الآن الى رومانسية . يجب ان اعرف الحقيقة ، وان اعرف الآن بالذات . وسألت بفظاظة متعمدة حتى أحذر من الاشفاق مقدماً :

ـ يا ممرضة ، هل سيقطعون ساقي ؟

وتجفل مرة اخرى ، وتصمت لحظة ، وكأنها تفكر في معنى السؤال . ثم تشرع بالكلام بسرعة واقناع :

ـ ما هذا القول ايها الرفيق العزيز؟ ستكون بخير في كل شيء ، في كل شيء ! وفي الصباح سيجلبون ايفان انتونوفيتش ، سيجلبونه بالتأكيد ، وسيكون كل شيء رائعاً !

ولكنني اتوجس بباطني الحيواني انني لست الذي تريد ان تقنعه الآن على الاطلاق ، بل تريد ان تقنع شخصاً آخر ، هناك ، وراء النافذة ، في الغابة . وانتقم منها على ذلك بطريقتي :

ـ انت تكذبين كلياً ، يا ممرضة !

وأصيب الهدف : من المفاجأة تسقط الفتاة المحرار الذي أعدته لي . وتقفز ، ويرتجف ذقنها المدور رجفة دقيقة . وتجري على خديها الاسمرين دموع مدرارة . وتلقي رأسها على صدرها ، وتهرع الى الباب في شبه عدو ، لا يسمع الا صوت تكسر شظايا المحرار تحت نعليها .

وبعد دقيقة تقبل سيما . من قبل كنت اعرفها بصوتها ، وبمشيتها ، والآن انظر في وجهها اخيراً . ان

سيما امرأة بدينة تجاوزت الثلاثين من عمرها ، ذات عينين صغيرتين حادتين في وجه منتفخ . يا الهي ، كانت تبدو لي من صوتها أحلى بكثير ... وانتظر المواعظ . بهدوء انسان يزدري المواعظ . الا ان سيما تجلس على مقعد وتعلن مبدية ثقة :

ـ اعذرها ، ايها المحترم ، انها ما تزال شابة وبلا خبرة . ثم انها كانت قلقة . ذهب خطيبها الى مركز الناحية في زلاقة تجرها الكلاب ليجلب طبيبنا ايفان انتونوفيتش . في مثل هذا الجو العاصف لا يخرج احد منا . انها في شهرها الرابع ، نعم ... فلا تحكم عليها . هذا مخدر لك ، ايها المحترم ، فنم ، الصباح ابو المشورة . لطيف ، يا محترم ، هكذا ... انا ذاهبة ، ان قلبي اليوم ليس كما يرام ... بسبب الطقس ، كما يبدو ...

وتنصرف سيما واضعة قدميها البدينتين المحشورتين في نعلين لباديين ببطء. وتتقدم وتنسل ذات الوجنتين البارزتين مرة اخرى ماشية على اطراف اصابعها الى مقعدها. وتظن انني نائم الآن ، فتجلس قرب سريري صامتة . وكنت ارى من خلال اهدابي المسبلة كيف تتفرس عيناها ثانية في

نقطة واحدة ، في النافذة . وكأن روحها كلها تطير الى هناك ، خلال الظلمة والثلج ، اليه . آه ، يا ذات الوجنتين البارزتين، يا قليلة الفهم، لماذا جرحتك، يا للشيطان !..

٨

... ان لالبرت ايفانوفيتش هذا وجهاً غريباً : حاداً وطباشيرياً مؤطراً بلحية جانبية صهباء حتى ذقنه ؛ ومن الصعب ان تعرف عمر البرت ايفانوفيتش . مرة يمكنك ان تعطيه اربعين عاماً ، واخرى ستين . وحين يبتسم او يضحك ، او حتى حين يقهقه يخيل اليك ان عضلات وجهه فقط هي التي تقوم بذلك ، اما هو ، وجسمه وعيناه فمتوترة مثل قطة تهم بالقفز .

انا لا ارى البرت ايفانوفيتش في الظلمة ، ومع ذلك احس بنظراته علي ، تلك التي تتؤلم منها ركبتاي بشكل متقزز في كل مرة . لم أظن قط من قبل هذا الحين ان تكون لرجل واحد مثل هذه السطوة على الآخرين . ومثلما في حلم كابوسي يطاردك شيء رهيب فلا تستطيع ان تحرك ساقاً أو يداً . ولكن في وسعك ان تستيقظ من

النوم ، اما انا فلا استطيع ان اتخلص من هذا الرعب منذ ثلاث سنين . ثلاث سنوات تسمرني عيناه في مكاني ، كلما أفكر في الهروب .

السؤال الوحيد الذي تجرأت على القائه عليه في يوم تعارفنا ، ظل سؤالي الاول والاخير . وفي الرد عليه ضحك البرت ايفانوفيتش ضحكة مقتضبة على طريقته :

ـ من انا ؟ غريب الاطوار ! فنان سيرك . هل كنت في سيرك ؟ هل رأيت حاوياً ؟ انا حاو . انا ايضاً استطيع ان اخرج من قبعة كل ما تشتهيه النفس المعذبة من المخدرات الى الجوارب الحريرية. وهكذا ، يا صديقي ، اعتبر نفسك محظوظاً وصاحبتك ـ محظوظة مرتين .

ومنذ ذلك الحين لا اسأل ، بل أكتفي بالسمع. وكل شيء ـ طريقة الكلام الساخرة العابثة ، واللباس ، وحتى هذا اللثغ الخفيف ـ يميز البرت ايفانوفيتش عن الذين صادف ان التقيت بهم سابقاً . كان ينظر الى الناس متفرسا دون ان يرف له رمش وكأنما ينفذ ببصره خلالهم . ومهما يكن رأي الآخرين فانا اعرف ان سيدي يري ويلتقط ويحفظ في ذاكرته الشيء الكثير بهتين العينين اللامباليتين . والا لما استطاع ان يعيش : فان

البرت ايفانوفيتش مهرب ، « آخر الموهيكان » كما يسمي نفسه .

واعوض شعوري بالعجز ازاء سيدي بالكراهية الخفية له . واجري حساباً آمل معه ان انال من البرت ايفانوفيتش في وقت ما تصفية كاملة لديوني عليه . ويبدأ ديني بفالكا . ان تلك الليلة التي لا تنسى لن تضيع عبثاً مني . انا أرى فالكا على الدوام كما رأيتها في ذلك الصباح محتقرة ومغرية . ولكن البرت ايفانوفيتش هو الحكم الفاصل : ان تكون هي بجانبه . وذلك قانون . وما علي الا ان ارضخ فقط ، ولكن لا انسى مطلقاً . ويكفيني ان اتذكر تلك الليلة الفريدة حتى تعصف بي موجة الحقد المجنون . وفي مثل تلك اللحظات أكون مستعداً للفتك به . ولكنني استقبله بنظرة ، وبلمحة واحدة أنكمش ، وانطفئ .

ثلاث سنوات وانا اعبر الحدود دون ان اعرف ماذا احمل ، فان ذلك لا يعنيني ، وسيدي وحده يعرف ذلك ، فهو عليم بذلك . وعبور الحدود مخطر ، ولكنه ليس معقداً جداً . ان القرية الواقعة على الحدود مقسمة الى قسمين : واحد في جانبنا ، والآخر في الجانب التركي .

وفي النهار يتزاور الاقارب فيما بينهم ببساطة برخص فردية. وتغلق الحدود في الليل . الا ان الليل ليس عقبة في وجه عواطف الاقرباء ...

ولا يذهب البرت ايفانوفيتش ، بل اذهب انا . ففي حالة الفشل لا تهددني الا دار المتشردين . اما هو فالاعدام وهذا ما لا يرضي سيدي ، كما يبدو . وانا عند البرت ايفانوفيتش الشخص الثالث . وفي لحظات صراحة السكر يربت على كتفي بملاطفة ويقول :

— انت يا سيريوجا محظوظ . تصمد أكثر من الجميع . ولدت سعيداً . وبشكل عام تعودت عليك كثيراً . انت تقدر على الاصغاء . وتلك مزية الحكماء من البشر . فلو تصمد حتى « يومي » ...

واليوم جاء « يومه » . ولهذا يجلس احدنا مقابل الآخر في سرداب غير بعيد عن الحدود . انه « عشنا » منذ ثلاث سنوات . وصاحبه ساندرو — وهو مضارب من مدينة باطومي — يهيئ لنا في هذه الليلة آخر نقلة . اننا سنرحل الى الابد ، وراء نطاق الحدود . ونحن نجلس صامتين . مرّت ساعة وأكثر ونحن صامتون . ليس لنا ما نتحدث عنه . اننا راحلون ، مرة والى الابد .

وثلاث سنوات ليست مدة قليلة ، على الاخص بالنسبة لي . ولكنني طوال هذه المدة لم استطع ان احزر سيدي : من هو ، ولاي شيء يسعى ؟ مجرد انني لا استطيع حل هذا اللغز . ان البرت ايفانوفيتش بالنسبة لي ، مثلما هو عند اللقاء الاول ، رهيب وجذاب مثل بيت مهجور .

نادراً ما اراه مرحاً او كثير الحديث . انه لا يتحدث في العادة الا عند السكر . عندئذ يتحدث طويلاً ، وبشكل غير مفهوم .

ـ ماذا نحن في العالم ؟ وهم ، سراب ! وربما حتى هذا الذي نسميه نحن الفانين عالماً انما هو ذرة من القذارة ، بعوضة في العالم الذي لا نستوعبه ... وفجأة ، تحصل ثورة ، تفضل ، وعش بالعافية ! فلماذا ولاي غرض ؟ حسناً ، اعلن السلطة السوفييتية في كل المجموعة الشمسية ، فماذا سيحصل ؟ سابقى لوحدي كوكباً منفصلاً ، عالماً مستقلاً بذاتي ، والسلطة بذاتها ... اخرجوا من تحت الاقدام يا عبيد ، ايتها المواشي الناكرة للجميل ! في البداية يقفون عند الابواب يستجدون : « اعطونا خبزاً رحمة حتى

الشتاء » . وبعد ذلك يوسخون المزهريات التاريخية في قصر الشتاء . انا افهم الثورة : روبسبير ، كونسيرجيري ، ليالي انعقاد الكونفنت . اما هنا فلاحون جهلاء ، تفو !

ثم تطغي عليه موجة من عربدة السكر :

ـ الحياة ، يا اخ ، جميلة في المجازفة فقط ، في الهجوم ، كما يقال ، في حمية الفجر الفروسي... الحياة في ذاتها فناء ، لذا يجب الاحتراق دون دخان... والسجن ، ايها الاخ ، استراحة بين فصلين ... نزهة صغيرة في مشرب المسرح ... أتعرف انت، مثلا، ما هو الحرس القيصري؟ حقا من اين لك ان تعرف اذا كان جميع اجدادك عبيداً . الحمد لله ، على الأقل انه قدّر لك مستقبلا ، فسيُخلق منك انسان ... على العموم اذهبوا جميعاً الى الشيطان ! .. اخلعي ملابسك يا فالكا ! .. اشربي ، نعيش مرة ! ..

ونحن الآن نجلس صامتين . وعن قريب سنخرج، وأحس بفزع وكأن قدمي أصابهما تشنج وانا في وسط بركة . وتنقبض معدني تقززاً ولو لا النبيذ الذي كان يصبه لي البرت ايفانوفيتش صامتاً قدحاً وراء قدح لولولت كالجرو في اغلب الظن . واسكب النبيذ ،

فان يدي ترتعشان . والسكر لا يجلب النسيان ، بل يملأ الرأس بثقل حديدي . اغلب الظن انني ذهبت الى هناك مائة مرة ، وعدت ، واليوم لن تكون هناك «عودة» . ومن جراء ذلك يتملكني ذهول . وكان يخيل الي مرة اخرى ، كما كنت في الطفولة ، بانني حبة رمل صغيرة لا اهمية لها ، ضائعة وسط عالم غريب هائل . الى اين يأخذني ؟ ولماذا ؟ وتصبح فوضى الافكار والذكريات والهواجس غصة مريرة في حلقومي.

ويشتعل عود ثقاب في الطرف الآخر من المنضدة . وينتزع لسان اللهب وجه البرت ايفانوفيتش من الظلمة . ويدخن البرت ايفانوفيتش ، وينظر الي من خلال النار . انا اعرف ان له عادة ترك العود يشتعل حتى النهاية ، بعد ان يمسكه من الطرف المحترق . وفي هذه المرة يطفئ عود الثقاب الى النصف . وقبل ان ينطفئ العود الاحظ ان اصابعه ترتعش ! ولكن ، ربما هذا ما تراءى لي . ويتغطى رأس السيكارة الاحمر بالرماد مرة ، ويتوهج بقوة جديدة مرة اخرى ، وكأنما ينير في الظلمة افكاري .

ـ دخن سيكارة .

ـ لا اريد .

ـ سيزول هذا .

ـ مزاجي متكدر .

ـ مخيف ؟

ـ قلت مزاجي متكدر .

ـ اعرف ، هذا يحدث . في المرة الاولى دائماً .

ـ وهل من المعقول ان تكون « مرة ثانية » ؟

ـ هذا يتوقف عليك .

ـ انا لا افهم .

ـ ستفهم فيما بعد .

ـ متى ؟

ـ في تلك الضفة .

ـ ماذا سنفعل هناك . غرباء جميعاً .

ـ الفلوس ، يا صديقي أحسن جواز واحسن لغة . ما دمت معي لا تخف شيئاً .

ولا اسمع في صوت البرت ايفانوفيتش اية لهجة آمرة حادة ، بل بالعكس ، نبرات مقنعة وحتى متوسلة . واتجرأ على القول :

ـ ما فائدتي لك يا البرت ايفانوفيتش ؟

توهج رأس السيكارة بقوة ، ولكنه خمد في الحال .

— غير مفهوم لك ، يا اخ . ولكن هذا باختصار على النحو التالي تقريباً : القرصان القديم يريد ان تكون له في الغربة لحمة بقر حية تعود عليها قليلا على الأقل... بشكل عام مسألة عاطفية ، ولكن ستكون هناك اشغال ايضا ...

وهنا يحدث الكسر المفاجئ في علاقاتنا . آه ، لو عرف الذئب العجوز اي خطأ ارتكب ! ما دمت اشعر بانني مقيد بنظرته كان بوسعه ان يطمئن ، اذ لم تكن لي القوة على المقاومة . اما الآن ، في لحظة الضعف الذي جعل البرت ايفانوفيتش ، البرت ايفانوفتش القادر ، يعثر في الظلمة ، وجد نفسه منبطحاً على ظهره دون ان يلاحظ ذلك .

ولكنني لا استعجل . وأتحين الفرصة . وأصغي ، فالاصغاء مزية الحكماء من البشر . يبدو ان هذا ما يعظ به البرت ايفانوفيتش .

واسمع وقع خطوات خفيفة . ويفتح شخص الباب بحذر ، ويقدم لنا قطعة من سماء لا نجوم فيها . وتبدأ الظلمة تهمس بصوت فالكا :

— قال ساندرو : ممكن .

ـ خفضي صوتك يا حمقاء ! اغلقي الباب !

واشعر بانني اصحو مع كل دقيقة . انا اعرف ، اعرف تماماً ان فالكا الآن ، وهي مختفية في الظلام ، تنظر ، كما كانت تنظر الي في تلك المرة بعينيها اللامعتين الوفيتين كعيني الكلبة ، تنظر ليس نحوي ، الى رأس السيكارة الارجواني . وينتفخ قلبي بالحنق من جراء ذلك مثلما تنتفخ قطعة قطن بمحلول متفجر.

ويتوقد رأس السيكارة للمرة الاخيرة وينثر على الطاولة مروحة من الشرر .

ـ حفظنا الله .

ونحمل ، انا وفالكا ، الحمولة ، الاخيرة اذا صدقنا بالبرت ايفانوفيتش . ويسير البرت ايفانوفيتش بلا حمولة ، للاحتراس ، كما يقول هو . ونخرج في صف واحد وراء الآخر في ليلة خانقة من ليالي آب . في المقدمة البرت ايفانوفيتش ، ووراءه فالكا ، وانا وراء فالكا . ولم اعزم على شيء ، ولكنني اعرف تماماً انني لن اذهب وراء هذه الجبال الماثلة امام العين ككتل داكنة ضخمة . لا شأن لي هناك . نعم ، لا شأن لي . ولا استطيع ان أتصور « الى الابد » هذه . الى الابد بعيد عن الارض

التي ارتبط بها بكل قطرة من قطرات دمي ، الى الابد بعيد عن اولئك الذين لم افقد الامل بعد في الالتقاء بهم . فهل من الممكن ان اقطع آخر امل ؟ ..

وفجأة يظهر شبح ساندرو في الدرب امامنا . ويحذر :

ـ انهم مروا . والنوبة التالية بعد نصف ساعة . ستلحقون ، يا اخوان .

ويختفي ، وكأنما لم يكن . ونواصل السير ، ويدمدم النهر في الليل في رتابة وبلا رشاش . وتنزلق الاحجار الزلقة تحت الاقدام وكأنها طليت بالصابون . ونسير حسب مشورة البرت ايفانوفيتش غير رافعين اقدامنا بل مجرجرين اياها كما يفعل المرء عند التزلج على السكي ، ولكن ذلك لا يخفض من صوت السير بل يجعل المشي اصعب . ويلتف الماء حول الكواحل ويبدو وكأنه لا يغلي فقط ، بل يهدر هديراً يسمع صوته الجميع حولنا . وحين تتلمس قدمي ، في آخر الامر ، اول حجارة جافة ، اسمع امامي صوت البرت ايفانوفيتش :

ـ الحمد لله ، مررنا .

لا اصدق اذني : انه لا يلثغ !

ويقول لي :

ــ سر في المقدمة . وسالحق بك .

واسير صامتاً في الليل . ولكنني اتوقف بعد عشر خطوات تقريباً . وسمعي حساس مثل جرح لم يندمل بعد . ويسقط شيء ثقيل على حصى الشاطئ واحدس ، انها حقيبة ظهرية . ثم تصدر من هناك ضربة معدنية قصيرة . ان البرت ايفانوفيتش يسحب الترباس . وفجأة :

ــ ارجعي الى الخلف .

ــ كيف هذا يا البرت ايفانوفيتش ! حلفت ...

ــ ارجعي ، يا كلبة !

ولا تتكلم فالكا ، بل تولول :

ــ البرت ايفانوفيتش .... البرت ايفانوفيتش ... ما السبب ؟ .. لقد فعلت كل شيء من اجلك ...

ــ اذهبي ، يا قذرة ، ليس عندي وقت ...

ولا يلثغ مطلقاً !

ــ حتى في دار المتشردين لا يقبلونني الآن ، لقد كبرت . الى الشارع مرة اخرى ، يا البرت ايفانوفيتش !

وتصرخ . وفي تلك اللمحة من الزمن اقرر . وابدأ بالعمل آليا مثل السائر في نومه . وتتلمس يداي صخرة

تحت قدمي ، وتقلعانها . وجانب من الصخرة مكسو بتربة باردة . وامسكها ، وارفعها فوق رأسي . واقطع الخطوات العشر التي تفصلني عن البرت ايفانوفيتش ، والصخرة فوق رأسي . وتغطي ضجة النهر على صوت خطاي . واميز بوضوح كلا الشبحين . هي راكعة في الماء ، وهو واقف وقدمه مرفوعة لتوجيه ضربة .

وتحدث ضربتانا ، في اغلب الظن ، في وقت واحد ، ويسقط هو ساحقاً تحته فالكا . وتتخبط فالكا في الماء ، وتنسل من تحته ، وهي لم تعرف ، كما يبدو ، ماذا حصل . واتقدم منها الا ان فالكا تبتعد عني فجأة ، وتمسك بحجارة .

ـ يا وغد ، آه ، يا وغد ! تضرب الناس من وراء ظهورهم ... آه ، يا وغد! .. لا تتقدم !

وتتراجع في الظلمة خطوة بعد خطوة ، ووجهها نحوي قائلة :

ـ وغد... انتزعك من الطين ، وانت ... آه ، وغد !..

ماذا كنت اريد من فالكا حين رفعت الحجارة ضد سيدنا ـ شكراً ، توبة ، خضوعاً ؟ لا ، على ما اظن . لقد صرخت ، وصرختها ، كالشرارة ، فجرت في نفسي الحقد الذي تراكم خلال سنوات ثلاث . والآن تصرخ : وغد . نعم ، بالطبع ، وغد . ويتملكني فجأة عدم اكتراث رهيب . وتتمتم الظلمة بشيء آخر ، الا انني لا اصغي الى شيء الآن . وادخل الماء ، واخوّض فيه بلا فكرة ، بلا غاية . سيان عندي انّى اذهب . لقد ضجرت من كل شيء . ولكنني ضجرت من المقاومة أكثر من كل شيء ...

ـ قف ، من يسير ؟

ويبزغ امامي جندي يحمل بندقية ، أفطس يافع تماماً . ويشرق الفجر ، واراه بكل وضوح . بل وارى الالق الصارم في عينيه ، اغلب الظن ، انه من حربة البندقية . في نحو العشرين من عمره . بكم سنة أكبره ؟ على الاقل بمائة سنة ان لم يكن أكثر ، ان لم يكن أكثر...

ـ ارفع يديك !

وارفع يدي مطيعاً .

٩

لم يدر في خلدي قط ان ينطوي انسان أخرق مثل سيما على مثل هذه المهارة . فلا غرابة ان تبدو يداها مثل لعبتين . ان اي نشال يرضي بأن يقدم لسيما نصف حياته لقاء مثل هتين اليدين ، لا سيما وان النصف الثاني من حياة النشال لا جدوى فيها . وامس فقط كنت اعتبر التضميد كالتسمير على الصليب ، اذ كل جسمي موجع . ولكن ها هما يدا سيما تبدآن بالعمل فوقى . واحاول ان لا انظر نحوها مخافة ان ارى ساقيّ . يخيل الي انهما سوداوان . ويمضي الوقت ، ولا احس بألم بعد، لا احس الا بالضماد المشبع بالمرهم الذى ينفصل عن جلدي ببطء ، ويذكرني بان عملية التضميد تجري بكامل تفاصيلها. بينما تقول سيما ساحرة دون ان تلتفت الى شيء:

— سنعالجك الآن بكل سرعة ... لا يستغرق ذلك غير خمس دقائق ... وستشعر ساقاك من المرهم بدفء وراحة أكثر . ثم نحقنهما بالبنسلين ، فيخاف الالم ، وينقشع ... لطيف ، يا الهي ، لطيف ... والآن تحمل ، يا عزيزي ، قليلا جداً ... وانت شاطر ، شاطر ... ولكنني لا اعرف اسمك ...

ـ سيرغي .

ـ اوي ، سيلوفنا ـ تخاطب تلك الملازمة العجوز الواقفة على مقربة ـ اي مريض وقع من نصيبنا ... عصامي اصيل حقاً ... انا امسكه بيدي الغليظتين ، وهو يتحمل ... يتحمل .... امسكي يا سيلوفنا ... هكذا ... والآن اليمنى ... تحمل قليلا يا سيرغي دقيقة اخرى ... هكذا ... امسكي يا سيلوفنا ... هكذا ... نعم ... نعم .... انتهى . اوف !

وتمسح سيما العرق من جبهتها بظاهر كفها وتشع عيناها بفخر واضح :

ـ ليست ساقين ، بل تحفتين . والآن ستشعران بدفء كدفء الموقد . والألم يخاف من الدفء جداً . اغطيهما ، يا سيلوفنا .

ويهدأ الالم حقاً ، وكأنما سمع كلامها . وسيما لا تهدأ :

ـ ألم اخبرك بالاخبار الجديدة ؟ لقد أصلحوا خط الاتصال . وإيفان انتونوفتش قادم . انه يحي الميت ... والآن لتأكل ... لا يجوز ان تمتنع عن الطعام ...

واحاول ان أظهر عناداً ، فان مجرد ذكر الطعام يقلب احشائي . ولكن سيما تلوح بيديها مثلما ترفرف الدجاجة بجناحيها وهي جالسة على البيض .

ـ انت ترسلني للموت يا سيرغي ! ماذا سيقول ايفان انتونوفتش ؟ اي نظام هذا ، يا سلام ، يومين لا تأكل ؟ كُلْ يا عزيزي على نحو ما ... سأعود بسرعة .

وتذهب سيما ساحبة نعليها على الارض . وتنصرف العجوز ايضا . وابقى وحيداً. وتبدو النوافذ وكأنها طليت بنيل كثيف . ويتلمس الفجر طريقه الى الردهة بالوانه المائية . وتحدث وقفات أكثر وأطول في حركة الريح المعولة . يبدو وكأن العاصفة الثلجية قبل ان تهب تملأ صدرها بالهواء . وترتجف ستائر النوافذ رجراجة عند كل دفقة ريح . بينما المولد الكهربائي يطلق في الظلمة العاصفة باستمرار .

نعم ، ان سيما هذه نثرت الملح على أوجع جرح في ... الى أين الخلاص من نفسي ذاتها ؟ عشرون عاماً وانا اخنق ذكرياتي في الكحول ، في البغض ، في العراك المتشنج من اجل مكاني تحت الشمس .

ولكن ماذا افعل الآن حين اكون معها وجها لوجه ؟ ان الذكرى تحدق بي ، فانحل فيها مثلما ينحل القصدير في حامض الازوتيك . هذه المرة الثانية التي ألتقي فيها بشخص يغري روحي عرضاً او ربما عن عمد بالخروج الى نور الشمس ، مثلما يغري حلزون للخروج من قوقعته ، ويجعلها تتكمش من الألم ...

وتجلب العجوز سيلوفنا بمهابة طاسة الحساء المرسل بخاراً ، وكأنما تقدم جائزة من جوائز الركض . وتتجمع الغضون العميقة عند عينيها كثنيات الاكرديون وهي تبتسم . وظهر سنان وحيدان في فمها بانتصار .

– تذوق حساءنا . في فرخنرتشينسك لا يطبخون مثله . هيهات ان يلحقوا بنا . ستأكل لسانك ! حساء السمك السيبيري !

وتبدأ باطعامي بالملعقة . وابتلع الحساء الدسم الكثيف الحار دون ان احس برائحته او طعمه . الا ان الدفء اللاذع المضعف يشيع فيّ ، واكف عن المقاومة . والعجوز ماضية في اطعامها :

– كُلْ ، يا عزيزي ، املأ بطنك . لا يطبخون عندكم في فيرخنرتشينسك مثل هذا ؟ لا يطبخون ، ها ؟

وفي هذه المرة لا اضطر الى النفاق . اوافق مقلداً للهجتها :

ــ لا يطبخون .

ــ سيما بذلت جهدها من اجلك . انها عندنا فتاة طيبة كريمة سوى انه لا يبقى شيء لنفسها . ها !

ــ نعم ، لا بأس ...

ــ يا للفتى ! « لا بأس » . انت لا تعرف فتاتنا سيما . لا ينقصها الا الدبلوم ، والا فهي طبيبة حقيقية . جلبها ايفان انتونوفيتش الينا من الجبهة . وكم أنقذت من الناس هناك ! وكل شيء تفعله بقلبها لا بيديها . وهبت قلبها للناس ، وهي لا تكاد تتنفس . الآن وقفت قليلا قرب الموقد وتمرضت . يضرها الوقوف قرب الموقد . ثم هذا ليس واجبها . ولكنها تصر قائلة : « أطبخ بنفسي ... بنفسي » . في ناحيتنا ثلاث مدارس من سبع سنوات : اولاد سيما في العماد . هي نفسها حضرت ولادة تلامذتها ! . .

وفي لمحة واحدة أتدرع بدرع واق : تكفيني هذه الرقة الحمقاء ! ان هؤلاء الناس لا يعرفون من انا . ما ان يعرفوا الحقيقة كلها حتى يتخطوني دون تردد ، وحتى

يأنفوا من دوسي . والآن علي ان العب معهم لعبة « من سيغلب » . لو تبقى ساقاي . سينتصر من له اوهام أقل . أليس كذلك يا زياما ؟ في هذا استطيع ان اسجل لهم مائة نقطة مقدماً . وحين اشعر بالارض تحتي ساتخطى ايضاً عشرات من مثل هؤلاء . ومدينة شاتسك الغاية . فهناك المقر ، وهناك المأوى ، وهناك الراحة .

ويفعل الطعام والدفء فعلهما ، فأشعر بنعاس . فاغمض عيني ، ويقرب مني الحاجز الفاصل بين اليقظة والحلم الدقيق للغاية مثل حد الموسى ، سؤالا نسيته منذ زمان : « انت تلوم الناس ، فهل كنت تعيش بين الناس حقاً ؟ »

واصرخ بجنون وبدون صوت ساحقاً ما يفلت من الذاكرة : « ولكن لا تعظني يا سيمين سيمينوفتش ، لا تعظني ، بحق الاله ! ان دمي يتخثر دون مواعظك ... »

وتتنهد العجوز وتتنهد :

— ايه !..

١٠

... نحن نسير الى الغرب ، والأصح انهم يسوقوننا الى الغرب . وأعني ب « نحن » طابوراً من اسرى الحرب .

ونحن نسير على مراحل ، من معسكر الى معسكر . وكلما نخرج في طريق جديدة يقل عددنا أكثر فأكثر . فاين نهاية طريقنا ؟ لا اعرف ، اغلب الظن ان الله نفسه لا يعرف . والا فكيف لا يضجر من هذا كله ؟ نحن نسير في صفوف مكونة من ستة اشخاص . ويحاول الستة ان لا ينحلوا ولا يضاف اليهم الا عند فقدان احدهم . الظاهر ان الشوق الى المعتاد والشائع – مثل غريزة الحفاظ على النفس – يظل ملازماً للناس الى آخر دقيقة .

ولا يسعد الحظ صفنا كثيرا ؛ فقد تعرض الى فقدان شديد . الا ان الباقين متماسكون باصرار . وهم في الحقيقة ، ثلاثة . انا ، وجاري سيمين سيمينوفتش ، والعم فانيا الذي يحتل المكان الثالث من الطرف دائماً . وعينا العم فانيا مريضتان . وجفناه المنتفخان كثيراً نصف مسبلين دائماً ، مثل جفني دجاجة ناعسة . وكان النظر الى اي شيء يكلفه دائماً القاء رأسه الى الخلف ، فيلوح من بعيد متشامخاً جداً . وفي واقع الامر ان العم فانيا سهل المعشر ، بل خجول . واثناء النزول للمبيت وخلال الوقفات يستلقي ووجهه الى الأعلى مسبلا ذراعيه على جنبيه ، ويظل بلا حراك على هذا النحو حتى يحين وقت

النهوض . ويسير العم فانيا صامتاً ايضاً ، وحذراً بشكل غير طبيعي ، وكأنه يخاف ان يضيّع نفسه هدراً . ويبدو لي انه يرزح تحت عبء ثقيل لم يجد بعد الكلمات ليعرب عنه .

الى أقصى اليمين مني يسير سيمين سيمينوفتش — وهو صانع فراء من موسكو مائل الى القصر كأنما شد من عروق واوردة ، وانا لا اعرف بأي شيء يمسك نفسه ، فان تحت ضلعه الأسفل جرحاً مفتوحاً مشدوداً على نحوما بالقميص التحتي . ولكنه كان يحلم بالهروب ليل نهار . في الطريق يقضم صانع الفراء ظفر ابهامه دائماً ، مفكراً في شيء ما، وازناً ، حاسباً . فيبدو لي غريب الاطوار . فاي منفعة في الهروب ؟ فليتنازعوا فيما بينهم ، وليأخذ احدهم بخناق الآخر . اما انا شخصياً فلا احرّك اصبعاً في هذا الشجار . فان احكام السجن الثلاثة علمتني شيئاً . فالى الشيطان ! ولكن سيمين سيمينوفتش باصراره الحار يوحي لي باحترام لاارادي .

ان تعارفي معه جرى هناك ، في لوزوفايا عندما افرغونا من العربات. في الحال كان يبدأ « التطهير » خارج المدينة ، في المعسكر المؤقت ، الحظيرة الاعتيادية

العائدة الى مزرعة كولخوز سابقة والمحاطة باسلاك شائكة . ويأخذون اليهود والعاملين السياسيين ، ويرمونهم بالرصاص هنا ، على بعد ثلاثمائة متر تقريباً من المعسكر ، عند خنادق مهجورة . وفي البداية يبدو الامر مخيفاً بعض الشيء. ولكنهم يتعودون على ذلك بالتدريج . وسرعان ما يكف الجميع عن الالتفات الى الرمي والصراخ . فان كل انسان يجب ان يفكر في نفسه ، فذلك اكثر واقعية . وينسل الى المعسكر اوائل المخبرين من المتطوعين . وهم يكشفون عن « العنصر غير المرغوب فيه » ، وينهبون في طريقهم من يصادفهم . ويتحمس ، بشكل خاص ، شخص ضئيل قميء له أنف مفلطح كأنه مكسور . ان هذا المخبر يندفع كالفأر بين الجنود المنكفئين بوجوههم الى الارض ، ويديرهم على ظهورهم .

– لماذا تخفي أنفك ؟ يهودي كما يبدو ؟ مفوض سياسي؟ ختزير !

وانظر كيف يقع ، بعد تفتيشات فاشلة ، على فريسة ، ويكاد يصرخ من الفرح :

ـ وقعت ، ها ؟ مفوض سياسي ، ها ؟ بعتم روسيا ، ها ؟

ويدور كالمغزل حول اسير طويل نحيل أصهب الشعر في فانيلة زرقاء ممزقة . ويصمت هذا مسنداً ظهره الى حائط الزريبة ، ويطرق برأسه اطراقة خفيفة . وفي قامته المنحنية من التعب المميت وعدم الاكتراث ما يبدو لك لو ان السماء تنطبق على الارض لما يجفل ولا يتحرك .

والمخبر يقفز حوله ، ويحشر تحت انفه قبضة موحلة جافة ، ويظل يلتفت الى الاسرى ، وكأنما يفتش عن شفاعة .

ـ ايها الاخوان ، هو قائد الفصيلة ، ها ؟ خضعت له ؟ شرب دمي ! باعوا روسيا ، ها ؟

ويصمت الجميع صمتاً ثقيلا . يا لغرابتهم ، كأنهم لا يفهمون ، فاي شأن لهذا التافه بروسيا . حقاً ، انهم غريبو الاطوار .

ويهزه الغيظ ، وتنفذ عيناه الصغيرتان في الاسير حادتين . وبقفزة يضرب الاسير على وجهه بعنف . وعلى الفور يسيل خط من الدم الاسود من شفة الرجل

الى حنكه ، ولكنه لا ينطق بكلمة ، سوى انه يميل برأسه جانباً ، ويقطب باشفاق .

وانا لا اكترث بكل شيء ، الا انني اتقزز من هذا الحيوان بانفه المفلطح . وبمثل هؤلاء التقيت من قبل ايضاً . سيان عند هؤلاء ماذا يخونون ، ومن يخونون — لمجرد ان يعيشوا .

واصرخ :

— يا قذر المستنقعات ، تعال هنا ، اريد ان اقول لك كلمة .

وتلوح على شفتيه الشبيهتين بشفتي سمكة الكراكي ابتسامة تملّق معوجة ، وكأنه يقول اعرف صاحبي من صوته ... ويتقدم ، ويتوقف على مقربة يباعد كثيراً بين ساقيه المحشورتين في حذائين جلديين طويلين ليسا على قياسه كما يبدو .

— سلام ، يا صاح ! متى اطلق سراحك ؟

ودون ان انهض اضربه بكعب حذائي على اربيته :

— هذا ، يا خنزير ، عنواني وشهادة اطلاق سراحي . تعال حين تستوحش .

وفي لحظة يغير موضع قدميه في الارض مفوّقاً زاعقاً زعقات قصيرة ، ثم ينتحي زاحفا ، ويغيب .

وتصدر قرب كتفي ضحكة جافة ساعلة :

ـ الا تخاف ؟

والتفت الى الصوت . فأرى عينين رماديتين كأنهما متقلصتان من وهج النور تنظران الي في شيء من السخرية ، وفي جد كثير في الوقت ذاته .

ـ لا .

وفي الحقيقة لا اخاف من شيء ، فان سيرتي من وجهة نظر رجال « اس اس » النازيين بعيدة عن النقد ، وهذا المخلوق القذر لا يجرؤ على ان يوشى بي، فهو يعرف بوجه من يقف .

ـ اين سجنت ؟

ـ هل انت محقق ؟

ـ لا تغضب ، ربما عشنا في منطقة واحدة .

ـ انا ، يا عم ، لم ارك في منطقتي .

ـ لم تر جيداً .

ـ في دالستروي ؟

ـ نعم .

ــ كم سنة قضيت؟
ــ سبعاً ، وانت ؟
ــ اثنتين .
ــ اها ، لص ؟
ــ لص ، وانت ، يا عم ، سجنت سبع سنوات لأنك قديس ؟
ــ مادة ٥٨ ، فقرة ١١ .
ــ مفهوم .
ــ ما هو المفهوم لك؟
ــ كل شيء مفهوم .
ــ يظهر انك لا تفهم شيئاً ، ايها الاخ . اسروني ، وانا فاقد الوعي ، اذا تريد ان تعرف ، والا اموت ولا استسلم . انظر .

ويكشف جاري عن قمصلته العسكرية ، ويلوح قميصه الداخلي المتخذ كضماد متغضناً من الدم المتخثر . واطبق شفتي متأثرا :

ــ نعم ...

واقول له :

ــ بشكل عام ، انتم السياسيين دائماً غريبو الاطوار .

ـ أتظن ذلك ؟
ـ نعم ، اعرف .
ـ تعرف بشكل سيئ .
ـ رأيت ما فيه الكفاية .
ـ لم تحتك بمن ينبغي .
ـ وماذا بالناس ؟ الناس متشابهون ، حيوانات ...
ـ هذا رأيك بالناس ، يا اخ ؟
ـ خنازير .
ـ يعني انا خنزير ايضاً ؟
ـ وانت ايضاً .
ـ اذا كان كذلك ، لماذا دافعت عن الآمر ؟
ـ لم أدافع عنه . مجرد ان بوز ذلك الوغد لم يعجبني .
ـ وانت ايضاً ، يا فتى... غريب الاطوار .
ـ نعم . انا هكذا .

وتشاتمنا طويلا دون ضغينة . ونعود فيما بعد، ونحن في الطريق ، الى هذا الحديث مرة بعد اخرى . ويصعب علي ان احتفظ باوراقي مع صانع الفراء هذا ، فليست حياته أسهل ، بل أقسى . ويزعزع مركزي بكلمات حادة مثل ضربات مخل :

ـ انت تلوم الناس ؟ فهل كنت تعيش بين الناس حقاً ؟ اي اوباش تحسبهم ناساً ؟ ان صاحبك البرت ايفانوفيتش مجرد ضابط مصاب بالزهري لم ينل جزاءه ... لست على وفاق مع السلطة ؟ اتحسب السجان سلطة سوفييتية ؟ انا ايضاً ذقت ما يكفي من السجن ، واعرف : ذلك ليس سهلا . ولكن كان اناس بحثوا عني بعد سبع سنوات في أقصى الارض ، وفهموا، وسوّغوا لي . ولست عظيماً ، مجرد صانع فراء بسيط . يعني يوجد ناس ، يعني توجد حقيقة . بينما تسأل لماذا ذهبت متطوعاً. ذهبت لأنني تحسست ارضي تحت قدمي.

انني سمعت من الكلمات في حياتي ما فيه الكفاية. والكلمات عند الناس كالريش . ولكن ما تحتها ؟ الا ان الكلمات عند صانع الفراء كأنما تملك حاسة اللمس ، ويبدو وكأن في الامكان تلمسها ، فوراءها حقيقة حياته الخاصة . وأدفع هذه الكلمات عني بحنق تراكم خلال كل اعوام وجودي ، وجود الذئب .

وفي الوقفات يستقر العم فانيا بالقرب منا دائماً . ويرهف سمعه الى حديثنا مسبلا ذراعيه على جنبيه . وبين الحين والآخر ـ وعادة في أكثر لحظات الجدال حدة ـ

تلوح من بين جفنيه المنتفخين ابتسامة ، يحزر المرء دون صعوبة ان العم فانيا لا يصدق بي ولا بسيمين سيمينوفتش . فلربما له حقيقته الخاصة ، وهو يسرها في نفسه ، ولنفسه . او ربما تقدم الحياة لكل انسان حقيقة خاصة به ساعة مولده ؟

ويسوقوننا من معسكر الى معسكر ، في طرق داخنة ، في ظهيرات تموز القائظة . طرق تنثر على اسناننا غباراً يقرقش بشكل يبعث القشعريرة في الظهر ، وطرق تنتزع من صدورنا سعالا جافاً ممزقاً . ونسير عبر قرى واطئة البيوت وكأنما أرهقتها سنوات الضيق ، والنساء ينظرن في اثرنا — سوداوات حزينات ، صامتات مثل شواهد القبور .

ويوضع طعامنا وشرابنا على جانب الطريق . فكثيراً ما نلاحظ من بعد برميل ماء ، وبالقرب من البرميل صفّت صرر مثل طيور مختلفة في ارياشها ، فنعرف على وجه التأكيد انه لن يحصل احد على شيء ، ولكن كل واحد منا يفتح في ذهنه هذه الصرر ، ويتلمس الطعام ، ويأكل . ولكن المهم الماء. فان جميع الافكار في الرأس تتركز في فكرة واحدة : الشرب . سأهب كل شيء الآن لقاء جرعة من الماء ! عطش شديد حتى لتحسب

نفسك احياناً بنت وردان علقت في الشمس . وما ان يحاذي رأس الطابور البرميل حتى تبدد دفعة بندقية رشاشة الصمت المتيبس من القيظ . وتحدق عشرات الاعين عطشاً في خطوط الماء المتلألئ المتساقطة من جدران البرميل . ويتساقط الماء على الارض ، وفي الحال تقريباً تبتلعه الشقوق الكثيرة في الارض المسفوعة . وتمر عدة دقائق لا يسمع فيها الا خفقات متنافرة لمئات من الاقدام الحافية على التراب ، وتلك الرقرقة الوديعة بشكل قاتل ...

ويطلق « الأصلع » على البرميل فيخرقه . والأصلع اسم اطلقناه على رقيب الماني كهل معروق يشبه الديك الرومي شبهاً مذهلا . له رقبة غير منحنية فيها تفاحة آدم كبيرة متحركة دائماً ، وجبهة ضيقة بيضوية ، وحاجبان بارزان كثيراً تلمع تحتهما عينان داكنتان بهدوء ووداعة . وهو لا يكاد يصرخ ، ولا يضرب . ولكنه يطلق النار ببرود الماني موكل بعمل يومي . اظن ان أكثر من نصف المفقودين هم من نصيبه .

الكز صانع الفراء بكوعي لكزة خفيفة ، وانا اشير نحو « الاصلع » :

ـ انظر ، يا عاشق الحقيقة ، هذا انسان ايضاً .
يصك صانع الفراء اسنانه دون ان يلتفت :
ـ خير لك ان تضرب عدد هذه الصرر الموجودة على جانب الطريق في عدد النساء اللواتي جمعن كل صرة في القرية كلها ، وجئن بها لك ، ايها الاحمق ...
وتلاحق الطابور دفعة رشاش ؛ ويتخلف في الطريق بعضنا . اما نحن فنواصل السير ، نسير الى الغرب .
ولكن احداً يرسل زفيراً طويلا :
ـ يا اخوان ، سحابة سوداء !
وتلتفت جميع الرؤوس الى الجهة التي تزحف فيها ، من وراء الافق الى القبة السماوية البيضاء ، عتمة زرقاء لعاصفة رعدية . ويطلل في عيني كل انسان سؤال واحد : هل ستصل الينا ، ام تتخطانا ؟ في البداية يغايظنا المطر : ينزل على التراب قطرات صغيرة ، فيلذع الوجوه التي دبغها القيظ بشرارات مائية ، ثم سكون مرة اخرى ، الا القلوب فتدق مسرعة في امل ، ثم ريح دائرية تغزل الغبار على طول الطريق ، وفي اثرها ـ ينزل على الطابور وابل كثيف هتان رنان . ونعرض له رؤوسنا ، وعيوننا ، وافواهنا . ونستعد لان نغرق فيه ،

وينزع سيمين سيمينوفتش عنه القمصلة العسكرية المبتلة بالماء .

ـ افتح كفيك ، يا سيريوجا!

ويعصر في راحتي سماء تموز المخلوطة بوحل الارض والدم . واشرب انا هذه السماء ، واشهق . ويعصر العم فانيا ايضاً طرف قيمصه الداخلي بين كفيه في غير عجالة ، ويلعق الماء في كفه كما تفعل الكلاب . الا الالماني الاصلع فقد كان يطبطب في خطوات منسقة الى جانب الطابور وقد ظهرت غضون الجزع في طرفي شفتيه ؛ لان المطر لا يمكن ان يوقف بطلقات الرصاص.

ونبيت هكذا تحت المطر المدرار ، يضغط احدنا ظهره الى ظهر صاحبه متلاصقين . وفي الصباح تهرسني الرجفة الخفيفة المألوفة لي . واحاول ان اقنع نفسي بان ذلك من البرد ، وان كل شيء سيزول عند الظهر ، الا ان التشنجات في الوجنتين وطعم الحموضة في فمي تترك تشخيصها : حمى . ان اي مرض في وضعي الراهن ، وحتى اتفه مرض انما صنو الموت . وهذه ملاريا . وحين ينهضوننا اعرف بالتأكيد ان

السفر لا يمتد بي طويلا . وكل الاشياء والطريق والناس تنقلب الى اغبشاش رجراج . ويحثني سيمين سيمينوفتش مذعوراً :

ــ ماذا بك ، يا سيرغي ؟ يجب ان تتماسك . اضبط نفسك ، وسر ... اوه ، يا اخ ، انت في حالة سيئة كلياً .

ــ ملاريا .

ــ اسمعني ، يا فتى . هل حدث لك ان ركبت المترو وانت سكران ؟ وعلى العموم المهمة بسيطة : قف على قدميك بشكل أقوى حتى لا يسدد لك هذا الشيطان الاصلع طلقة ... ساسندك . والمهم ان تجرجر نفسك حتى محطة المبيت التالية ، وهناك تستريح . نتحرك .

واسير ، ناقلا بصعوبة قدمي اللتين تبدوان من حديد . وملء رأسي رنين ثقيل . وفي عيني تتراءى دوائر ، وهي تتضاعف داعياً بعضها بعضاً ، وتتوهج بالوان قزحية ، وتتساقط مثل برد ثقيل . ويسندني سيمين سيمينوفتش بكتفه العظمي من جانب في حذر . وهذا أكثر من كل الكلمات التي قالها حتى هذا الحين .

ظمأ ، ظمأ لعين ... وكأنما أُلقي في رئتي جمر مثلما يلقى في سماور . وتحرقني النار اللاذعة من الداخل تطلب وتلح على الماء . امرر لساني الجاف على شفتي :

ـ عطشان .

واسمع صوت سيمين سيمينوفتش وكأنه خلال وسادة :

ـ اصبر قليلا ، يا سيروجا . عندما يغيرون هذا الكلب الاصلع ساحاول ان ابلل قميصي في الساقية . والآن لا يمكن .

ولكنني اكرر كلمة واحدة :

ـ عطشان ... عطشان ... عطشان .

وفجأة يتنحى عني سيمين سيمينوفيتش .

ـ انتظر ، اجمع قواك ، وسر الى الامام بلا تمايل ... يبدو ان الاصلع ذهب الى تلك الناحية .

وفي اللحظة التالية اسمع صلية قصيرة تمر بالقرب من اذني تماماً ، وتعيد لي الوضوح الصاحي في لمحة . وأرى سيمين سيمينوفتش يطبق جذعه ويسقط في ارتباك على ركبة واحدة اولا ، ثم على مرفقه ، ثم ينقلب على

ظهره ، ويتدحرج الى الساقية . وتنطفئ ذاكرتي مرة اخرى .

ولا اعرف كيف وفقت في ان أقطع يوماً آخر من السفر . وأفيق على نفسي في منتصف الليل . علياء السماء الملونة بلون حبري لصقت عليها نجوم باردة غير وامضة. والحراس يتحدثون ويضحكون بمرح . والى جانبي يستلقي العم فانيا مسبلا ذراعيه على جنبيه كما كان من قبل . وتنظر الي فتحتا مقلتيه الهلاليتان الميتتان في تساؤل . ويقول لي بهمس سريع :

ــ قلّل قدر الامكان من الحركات ، وقلل قدر الامكان من العواطف . قانون حفظ الطاقة ...

وتتملكني الرغبة فجأة في ان اصرخ به في اعماقه بشيء مجلجل مصم ، ولكنني لا اجد في تلك اللحظة كلمة واحدة ، ولا حتى شتيمة فاحشة .

١١

الشمس هي أول ما اشعر به ، وانا اتيقظ . كثير جداً من الشمس . شمس حادة كما هي في الشتاء باهرة للعيون تنسكب من فرجات النوافذ الذائبة الثلوج

مضيئة بسيولها الشفافة دوران بلايين من الاجرام السماوية المجهرية . والردهة خالية . ولكن في الممشى يسود صوت مزكوم اجش ببحة .

ـ سيما ، المهم مزيد من الماء الحار قدر الامكان . يجب ان أدفئ يدي . والا فالشيطان يعلم ماذا سيصيبهما ! مثل حجارتين ... متى جاءوا به ؟

ـ هذا اليوم الثالث . عثر عليه نيقولاي في التايغا .

ـ لو نعرف كم قضى من الوقت مطروحاً هناك ... عنده حرارة ؟

ـ في الصباح ثماني وثلاثون وشرطتان .

ـ اتظنين انه التهاب متقيح ؟

ـ نعم ، حسب ما أرى يا ايفان انتونوفيتش : كيس مخاطي ، واحمرار وتجمع السيولة وحرارة مرتفعة .

ـ هل يشكو ؟

ـ صامت ، يتحمل . الا انه يسأل فقط هل ستقطع ساقاه ام لا ؟

ـ غير أن الالم جهنمي . من اين هو ؟

ـ لا توجد هويات معه . اغلب الظن انه من رجال البعثة .

ـ على العموم ليس هذا مهماً الآن . هل يأكل ؟
ـ قليلا جداً .
ـ مفهوم . اعدي يا سيما كل ما هو ضروري. لنحاول ان نجعل من الفتى راقصاً من الدرجة الاولى .
ـ الله يستجيب .

وأسمع وقع خطوات . وتقترب الخطوات أكثر فأكثر مرنة متناسقة . واتظاهر بالنوم . وتصر ارضية الردهة الخشبية . ويحط شخص جسمه على مقعد بالقرب مني بتؤدة . وتمسك رسغي اصابع كبيرة باردة ما يزال اثر العاصفة الثلجية عليها . وابدأ بالانصات الى نبضي . وتنبعث من الرجل الجالس بالقرب مني رائحة تبغ رخيص وفروة خروف . وافتح رموشي قليلا ، وارى من خلالها رجلا ضخماً مجدور في نحو الخامسة والثلاثين من العمر يلقي مريول الطبيب على سترة حائلة اللون مزررة حتى العنق . ويتابع الرجل بانتباه عقرب الثواني في قرص ساعة جيب . ويتحرك تحت الجلد المجدر عظما الوجنتين غير الحادين . اذن هذا انت يا ايفان انتونوفيتش ! ويضع الطبيب الساعة في جيبه ، ويلقي الي نظرة مقيّمة لجوجة :

ـ هل انت يقظان ؟
افتح عيني .
ـ يقظان .
ـ تشعر بألم ؟
ـ هل ستقطع ؟
ـ نعم .
ـ كلياً ؟
ـ سنرى .
ـ لا اسمح بالبتر .
ـ تخاف ؟
فقدت هذه العادة في الطفولة . الا ان الموت خير من فقدان الساقين .
ـ هل تعرف ان ترقص ؟
ـ نعم . حدث لي ذلك .
ـ يعني سترقص ايضاً .
وينهض ايفان انتونوفيتش عريضاً كالدب متين البنيان ، في عينيه المنغوليتين الشكل نقطتا ضوء ضاحكتان .
ـ اربط الاعصاب بعقدة . سنبدأ الآن .

ويخرج الدكتور .

ـ هل انت مستعدة يا سيما ؟

ـ خمس دقائق ، يا ايفان انتونوفيتش .

واسمع باب الدخول يصفق . وتبلغني نفخة هواء مثلج لا أكاد احس بها . وفي اثره هتاف :

ـ لم تلتق ، يا ايفان انتونوفيتش ؟

وينخفض صوت الدكتور العالي الى آخر حد :

ـ لم نلتق ، يا غاليا .

ـ يعني انفصلتما ؟

ـ يعني انفصلنا .

ـ سافرت عن طريق وادي الذئاب ؟

ـ نعم ، يا غاليا .

ـ وهو قد سلك نفس الطريق ...

ـ يا غاليا ، يا عزيزتي ، انت تعرفين بنفسك ان التايغا ليست مثل شارع ايركوتسك .

ويرتفع صوت سيما ، وكأنها تضع حداً للمحادثة الكئيبة :

ـ اجلبي ماء ، يا سيلوفنا !

ويأتي صوت العجوز من اعماق الممشى القصوى ، وكأنما قادم من عالم آخر :

ـ في هذه اللحظة .

ـ هيئي المريض ، يا سيما .

وفجأة ينتقل الي ايمان هادئ من هذا الصوت المبحوح . وابدأ بالاعتقاد بان كل شيء سيمر بخير ، ان اكون في شاتسك . ولكي لا افكر بشيء اغمض عيني ، واعد : « واحد ... اثنان ... ثلاثة ... » وبعد المائة بدأت العد من الاول : « واحد ... اثنان ... ثلاثة ... » ولكنهم يرفعونني من المكان الذي ارقد فيه ، ويضعونني في مكان صلب وبارد . واسمع همساً ، وكأنما يأتي من خلال سنة من النوم :

ـ بحذر أكثر يا سيلوفنا . امسكي من تحت اليسرى . هكذا . غطيه .

ـ خفيف جداً .

ـ جلد وعظم .

« تسعة عشر ، عشرون ، واحد وعشرون ... » ويحملونني الى مكان ما . ثم نتوقف ، ويتدلى فوقي سؤال مبحوح :

ـ سنبدأ الآن ، هل تسمع ؟

اهز رأسي صامتاً ، واواصل العد : « سبعة واربعون ، ثمانية واربعون ، تسعة واربعون ... » وآخر ما اسمعه حديث متقطع مثل تناد الجنود :

ـ جاهز ؟

ـ جاهز .

ـ قناع .

ـ هذا .

ـ مخدر .

ـ تفضل .

« ثلاثة وتسعون ... اربعة وتسعون ... خمسة وتسعون ... »

١٢

... كأن القطار يتفوّق ، وهو يدمدم على فواصل سكة الحديد . وسميك كحجر الاردواز مربع الليل وراء الزجاج الذي ينعكس فيه خليط مضطرب من الناس ، ومن هذا الفواق المتقطع الذي ترسله العجلات يمكن التخمين بان القطار يتحرك . وفوق باب المقصورة

تخفق نقطة مصباح قاطع التذاكر الصفراء مثل حبابة نور مرتجفة . والوجوه في ضوئه المتذبذب رمادية شبحية . وانا مضطجع تحت مصطبة ، ورأسي في جهة الممشى ، تضغطني من جميع الجهات الاجسام والحمولة . وفوقي خليط هاذ من الانين والهمس والسباب . كلمة واحدة قصيرة وعارية كضربة السوط تنطلق في العربة . انها تنطق في كل الاشكال : مرة بمرارة ، واخرى بتردد ، وثالثة بأمل ناقم . وهي تبكي ، تتنهد ، وتشخر فعل السكران ، وتقهقه بشهوانية . وهي تقطع الانفاس ، وتغطي اللثات بلعاب حامض . وانا اعرف هذه الكلمة منذ الطفولة ، ولكنها في الماضي لم تضم كل هذا المحتوى :

ــ خبز .

ــ خبز .

ــ جفاف .

ــ سيكون ربيع صعب .

ــ سنصمد .

ــ مصيبة وراء مصيبة . ودّعنا حرباً ، ولقينا مجاعة .

ــ المهم الآن ان لا نصاب بذعر .

وفي الزاوية حديث آخر :

ــ اشرب .

ــ لذيذة .

ــ لا نتعاطى بغير اللذيذة ...

وامد رقبتي بلا وعي مني . وتتحلب مؤخرة فمي بحموضة الجوع في الحال ، فهناك رجلان يأكلان . انهما يأكلان من تحت اكمامهما تقريباً ، وعيونهما تتلصص فيما حولهما . وللرجل الجالس ازائي وجه اضرّ به البلل، له لحية هزيلة متباعدة في خدين متهدلين . وهو ايضاً كأنما لا يأكل قطعة الخبز بل يلتهمها بشفتين رخومين لا تصدران صوتاً كأنما قد هرمتا . وتحدق عيناي فيه . ان الخبز يجذب اليه ، الخبز يسيطر علي . خبز صلب ينهشه فم رخو . وتلتقي نظراتنا ، وتنزل الى الارض ببطء ساقان ملفوفتان بلفافتي الساق مدبستين عند الرسغ بدبوسين . وتصدم الانف رائحة مقززة لعرق قديم . ويدور الرأس ، ويبدأ كل شيء امام البصر يدور بانسياب وكدر . وقرب اذني تماماً يجري همس عجول بالفاظ سكرانة :

ــ تحرك ... خذ ، وامضغ ، كل ... لا تخف .

غير مسروق .... اين رائح ؟ ... كل ، كل ... اما انا فانتظر ... وانت لك قوة .

ـ وماذا في قوتي هذه ؟

ـ رأسي انا ، وذراعاك انت ... صحن مشترك . فلا نضيع .

ـ وما حاجتك بي ؟

ـ تساعدني قليلا ، تعاونني ...

ـ لست استاذاً في فن البيع والشراء .

ـ مهمتك ان تأخذ اكثر ، وتحمل ابعد .

ـ اذهب انت ...

ـ اوه ، اذا تتمسك بالشرف ، مص اصبعك اذن .

وفي تلك اللحظة تأتي همهمة محذرة من الطرف الآخر من العربة الى جهتي :

ـ ميليشيا ، ميليشيا .

وتتردد هذه الكلمة ككلمة « الخبز » في كل الاشكال . وتنقطع الانفاس السكرانة التي كانت بالقرب من اذني . ويقبل نحوي ـ وانا من موضعي مشرف على المكان كله ـ رجل يبدو هائلا تقريباً في هذا الخليط من المخلوقات المنكمشة متخطياً الاجسام

والاكياس دون حذر . وكل شيء فيه هائل وذو سطوة من مشيته الى وجهه العريض ذي العينين الواسعتين . يحمل في احدى يديه مصباح كيروسين يضيء به الزوايا المظلمة . واليد اليمنى تستقر على غمد . اذن فهذا الرجل يغطي بجسمه الضوء في الاعلى ، ويبرز الحذاء الطويل المركب عليه كالوش رطب بالقرب من عيني تماماً . ثم يأخذ ضوء المصباح بالنمو .

ــ يا من هناك ، اخرج الى نور الله !

ويخرج اولا جاري متأوهاً لاعناً بصوت غير مسموع تقريباً . ويسخر فوق رأسي صوت سخرية مغيظة :

ــ اي ، بالعافية ! هل صورتي معروفة لك؟ .. اي خيجنياك ، خيجنياك . كم عمة لك ! وهكذا في الامكان ان تنهب الاتحاد السوفييتي كله ، والعمة تطعمك . اها. أرى معك مساعداً . ويمكن القول تسافر مع حاشية كاملة ... اي ، يا مساعد ، تفضل ... لا بأس به... للتاجر عين ترى . بالعافية ! هل هو معك منذ زمن طويل ؟ ..

وأضيف مسرعاً :

ــ انا بنفسي .

ويقلص الرجل عينيه وهو ينظر الي ، وكأنما داهمه ضوء ساطع . وتتحرك عيناه جاحظتان .

ان الرجل أكبر مني باربع سنين ، او خمس على أكثر تقدير .

ــ من اين انت ؟

وأحس بان الرجل يثبت قدميه في الارض قوياً . وفجأة تتملكني رغبة عارمة بان أقول له كلمات خاصة ليفهمني وليمنحني على الأقل بنظرة ، على الأقل بحركة جزءا صغيرا من قوته وثقته . الا ان شفتي اللتين لا تطيعانني تنطقان باقتضاب فقط :

ــ من الاسر .

وتنطفئ العينان الجاحظتان . ويقول بلهجة اخرى وهي اما بالحاقدة ، او بالمرتبكة ، وهو يدفعني برفق امامه :

ــ حسناً ، تعال معنا ، وهناك ستتحقق ... يا اغوريبف ، خذ هذا ... لا تحم بالقرب من الامتعة يا خيجنياك . فان امتعتك لا تنفعك الآن ...

ويقودني رقيب افطس الانف ذو عينين ناعستين

كعيون السمك الى فسحة العربة ويلتفت ويسحب الباب الى جهته :

ـ اقفز ، يا صاح .

ـ لماذا ؟

ـ انت تعرف كيف يستقبلون مثيلك اليوم ... اقفز والا فسيكون مصيرك قطع الاخشاب ...

واقاوم في داخل نفسي . ويخيل الي انني ما ان ابقى حتى ينفذ الرجل ذو الحذاء المركب عليه كالوش الى ألمي ، الى ضياعي ، ويستطيع ان يساعدني في الخروج من الدوامة التي ادور فيها سنين طويلة لا عد لها . وانا اثق به ، اثق رغم تجربتي الحياتية المريرة ...

الا ان الرقيب يمضي في دفعه اياى نحو الباب ، واخرج انا الى درجة العربة ، واقفز في الليل ، وتطير الارض الصاخبة للقائي .

١٣

استيقظ من جراء تمتمة رتيبة فوقي . وارى سيلوفنا جالسة في مكانها المعتاد . وطرف انفها الشبيه بقطعة من حجر الخفاف احمر تحت اطار النظارة . وفي يدي

العجوز ورقة دفتر كلتا جهتيها مكتوبة . وهي تحرك شفتيها الرخوتين رابطة بمعاناة الكلمات التي تفلت منها بين الحين والآخر :

— ... ونبلّغك ايضاً في السطور الاخيرة باننا ارسلنا لك ثلثمائة روبل . فاشتري لك هدية للعيد على ذوقك . تحييك زوجتي نيورا وابني ستيبكا . وأظل ابنك المحب بيوتر . غاب عن ذهني كلياً ان اذكر انني الآن عامل ماهر ، وقريباً تعطى لنا شقة ...

احاول ان احرك ساقّي بحذر ، وتلتمع في ذهني فرحة في لمحة : انهما صحيحتان ! صحيحتان ! يعني ما ازال قادراً على ان اسير في الارض بقدمّي ! وتعتريني خفة تدير الرأس . واسأل العجوز ، وانا ما بين مصدق لنجاتي ومكذبها :

— يبدو ان رجلّي باقيتان ، يا ام ؟

— باقيتان ، باقيتان يا عزيزي . والا كيف ؟ ايفان انتونوفيتش لا يخطئ . انهم يدعونه الى نوفوسيبيرسك ، ويعدونه براتب بروفسور ، وشقة ، ولا يذهب ... ارتفعت درجة حرارته بعد سفرة البارحة . اربعون كيلومترا في مثل هذه العاصفة الثلجية .

ـ وتلك الفتاة ... سيما .. كيف هي ؟

ـ سيما ، طبعاً ، بالقرب منه .

ـ هل عندهما اولاد ؟

ـ هذه حكاية كاملة يا عزيزي . انهما لا يعيشان سوية . بالطبع كانت سيما تقبل بكل قلبها ، ولكن ايفان انتونوفيتش متزوج . وعائلته في ايركوتسك . ولزوجته حسابها ـ انها لا تأتي . وهو يعيش عندنا منذ اثني عشر عاماً تقريباً ... وسيما تكن له حبا من الجبهة ، ولكنه حب غير متبادل . ان قلبها كبير يكفي لثلاث وثلاثين ابنة قيصر . ولكن مظهرها الخارجي ليس جميلا ...

ـ هل ساظل طويلا هنا ؟ ألا تعرفين ؟

ـ ماذا وراءك ؟ استرح واجمع شحماً . ليس عندك ما يستعجلك . ولاي شغل تصلح الآن ؟ اما اذا تريد ان تبلغ احداً بمكانك، اهلك، او مكان عملك، فذلك ممكن دائماً .

ـ لا ... لا حاجة ... الآن ...

ـ انت مغرور ! ابني بيوتر يكتب لي في كل وقت ، في السراء والضراء ... وها هو يرسل ثانية ...

رسالة مسجلة ... انه صياد سمك في مورمانسك . وافراد عائلتنا جميعاً صيادو سمك ، واحفاد صيادين ... وانا حسنة الحظ بزوجة ابني ، فقد أنجبت لي حفيدين ... ويقولون في الرسالة انهم ارسلوا نقودا . والنقود غير مهمة ، بل كونهم لا ينسونني . أتصدق بأنني ، عندما لا تصل رسالة ، أعيد قراءة الرسائل القديمة من جديد . خذ اية رسالة ، انها كالاغنية ...

وتصدح الكلمات الرنانة ، واهدهد نفسي باهتزازها الرتيب كاهتزاز المهد . وتطوف افكاري بعيداً عن هذه الغرفة ذات النوافذ المغطاة بالثلج بستائرها من الشاش . وتبدأ ايام يجب ان توهب كل دقيقة هدوء فيها لحساب صاح رصين . يجب ان يوزن كل شيء بأدق التفاصيل في السفر المقبل . من المستحيل تقريباً التسلل من قرية التايغا في الشتاء دون ان تلاحظ . ولكن في «تقريباً» هذه بالذات يجب ان اجد ثغرة . وساجدها ، وأتسلل . وتكفيني لذلك ليلة واحدة تلعب فيها الريح . وملابسي هنا في مكان ما في المستشفى . والسكي موجود في كل بيت . يعني لا تنقص الا الريح . الريح فقط .

ولكن ، من غريب الامر ، ان عدم رضى عن

نفسي غامضاً يختلط في افكاري عن الحرية الوشيكة بين الحين والآخر ، وكأنما انا ، كذلك المقوص الساقين في الاسر ، بصقت في روح انسان دون سبب .:. في مكان ما يضل الفتى الاشعث الذي خرج ليستدعي الطبيب في زلاقة تجرها كلاب ... واغالب النعاس ، وأسعى لسؤال العجوز عن الفتى ، ولكن الغفوة تقطع السؤال في منتصفه .

١٤

... لا استطيع ان لا انزل الى هذه المحطة . وانزل اليها رغم أبسط قوانين المتشردين ، رغم كل ادراك سليم . واقف في الساحة الملحقة بالمحطة ، اعرف مدينتي ولا اكاد اعرفها . لا ، ليس هذه يوجنوغورسك ما قبل الحرب : فمن خلال اشجار الاقاسيا المتحركة اغصانها بحفيف ، تبرز للقائي مدينة حديثة بشوارعها العريضة المستقيمة ، ببيوت جديدة ، والوان جديدة ، وروائح جديدة . واتجول حتى حلول الظلام في شوارع لا اعرفها محاولاً العثور على اي اثر لطفولتي ، ناظراً في الوجوه . الا ان مفارق الطرق تتشعب في مختلف

الجهات بشوارع مستقيمة مجردة من اية علامة فارقة . وحين اصل الى بركة خيتروف فقط يقع بصري على جزيرة الماضي الضئيلة . بيت العجوز غوريان البار عند الشاطئ تماماً ، ما يزال غاطساً في الارض الى الوسط ، كما كان قبل سنين عديدة ، معوجة زواياه الاربع ، محصوراً حتى حافة الماء تقريباً بجدار بناية المصنع الهائلة . ان هذا السقف انقذني مرات كثيرة من الضيم والاذى . كان العجوز يعيش وحيداً معتكفاً على نفسه ، وكان يقضي اياماً عديدة وهو ينحت لنا ، نحن اولاد الحارة ، مختلف اللعب من فضلات الخشب .

واطرق الباب الذي أعرفه طرقاً طويلا . وتفتح الباب عجوز جسيمة غليظة الشفتين في مئزر مبقع . وتصدم انفي رائحة مطبخ كثيفة . وتنظر الي العجوز في تساؤل بعينين كامدتين ، وتمسح بمئزرها اصابع دهينة .

ــ من يعيش هنا الآن ؟

ــ ما هذه « من » ؟ ــ وتنظر الي العجوز من قدمي الى رأسي مرتابة ــ نحن نعيش ، عائلة كاشكين .

ــ منذ وقت طويل ؟

ــ منذ وفاة غوريان البار .

ـ هكذا ...

ـ وهل انت قريبه ام كيف ؟ اذا كنت قريبه عندنا عقد شراء ، ووثيقة من سوفييت المدينة .

واسمع في اثري :

ـ يأتي انواع واشكال ...

وبعد ذلك استلقي طويلا على العشب تحت رصيف المحطة واضعاً راحتي تحت رأسي ، غير مفكر في شيء . وتبدو الطفولة في الحقيقة مثل حلم مرّ بي . فانها لم تترك على الارض حتى اثراً . يعني انها لم تكن .

ويخرجني من الجمود صفير قطار موحش . في الاعلى يتحرك قطار بضائع مزيدا سرعته ببطء . واركض على السدة ، واتعلق بلدرابزين فسحة الفرملة المارة واسحب نفسي فأجدني وجهاً لوجه مع صبي منمش ذي عينين واسعتين في نحو الثانية عشرة يجلس بوقار على كيس قليل المحتوى .

يقضم الصبي قطعة خبز بتلذذ ، ويفسح لي مكاناً في حسن ضيافة :

ـ تفضل ، المكان كاف .

ـ يعني لا تطردني ؟

يقطع جاري قطعة الخبز ، ويقدم لي نصفها :

ــ هل سفرك بعيد ؟

ــ نعم ، يبدو ذلك ، الى مكان ما بعده مكان .

ــ ربما نتزامل في الطريق ؟

ــ الى اين ذاهب ؟

يملأ الصبي فمه بلباب الخبز ويتمتم :

ــ الى انغارا . هل سمعت بها ؟ ابي هناك . وانا لم أره منذ ان ولدت . تقول امي انه ضاع . ولكنني اعرف انه ذهب الى حيث يذهب الجميع ــ الى انغارا ...

ــ سفرتك طويلة ، يا اخ ، طويلة .

ــ ساصل . وهناك اذهب الى الرئيس واقول له: اين يعمل بافل بافلوفتش غروبتسوف ؟ ان ابي يدعى بافل بافلوفتش . انا ، يعني ، سيرغي بافلوفتش .

ويتابع كلامه بحرارة واقتناع وتخلخل ، اما انا فلا استطيع ان ابتلع الشجى الحاد الذي انحصر في حلقومي فجأة . فيم افكر الآن ؟ وهل من الممكن التعبير عن هذا بلغتنا البشرية القاصرة ! وأدس اصابعي الخمس بالخصل القمحية :

ــ اي ، سيرغي ، يا سيرغي ، لو تلتقي مثلي ،

يا اخ ، بشبيه بالبرت ايفانوفيتش ، عندئذ ستكون لك انغارا !

ويهدأ الصبي ، مرهفاً سمعه بحدة الى معنى القول ، ثم يغضّن جبينه بتفكير :

ـ لا التقي .

يقلل القطار سرعته . وتبدأ بالانصباب في الطريق شوارع رحبة لقرية يخيم عليها المساء ، وابنية محطة . علي ان انزل مسبقاً لاتفادى حراس النقل . واقول للصبي :

ـ اختبئ انت يا اخ . اما انا فساحصل على طعام للطريق اثناء وقوف القطار . فالطريق الى انغارا طويل جداً !

ويغمز لي الصبي في تواطؤ .

واقفز في ظلام شريط الاشجار ، والقطار سائر ، واصعد الى الطريق ، واتجه الى المحطة من جهة القرية . والساحة مقفرة ، الا من رجل ميليشيا ذي شاربين يقف على الدرج المضاء امام مدخل المحطة . ولات وقت تراجع ، فان رجل الميليشيا ذا الشاربين يراني بوضوح ، واحاول أن اسير بأكثر ما يمكن من الثقة ، واتجه الى كشك مفتوح . واشعر على ظهري بنظرة ملحاحة مقيّمة ،

وانا اتحدث مع البائعة : انه يراقبني . وابدأ بطلب هذه الحاجة وتلك مؤجلاً ما لا مناص منه . وترفع البائعة ،وهي فتاة نشيطة سريعة الحركة ، حاجبيها المعقودين ، وكأنها تقول ، يا له من مشتر . وحين اعزم اخيراً على الاستدارة محملا بمختلف الاطعمة يبدو رجل الميليشيا على بعد خمس خطوات مني ؛ ويتظاهر بعدم الاكتراث ، ولا ينظر نحوي الا بطرف عينه . يا لها من نظرة سيئة ! والآن تقرر الثواني المقبلة كل شيء . وأخطو خطوة نحوه . واحرك شفتيّ الجافتين باول ما يطرأ على ذهني :

— اسمع ، يا جاويش ، هناك صبي يسير عند الفرملة . من الخير ان تمسكه ، والا فسيضيع .

ويحي ذو الشاربين في الجواب :

— اين ؟

جميل : فهناك ، في الظلمة ، بين القطارات يكون الهروب اسهل من هنا ، في مكان مكشوف . ونسير على سدة السكة الحديد ، وأفطن ، بين الحين والآخر ، الى النظرات القصيرة الدارسة التي يوجهها رجل الميليشيا الي . وتحت العربات تطوف انوار عمال الفحص تاركين

وراءهم رنيناً معدنياً متكسراً . واقف عند عربة فيها فسحة فرملة : « هنا » .

يشعل الجاويش مصباحاً يدوياً .

– انهض ، ايها الرفيق العزيز ، وصلنا .

ويقلص الصبي عينيه من الضوء الحاد الموجه اليه ، ثم ينهض صامتاً ، وينزل طائعاً في اثر الجاويش . ويثبت نظره بي لحظة ، ويتنهد بحنق ، وازدراء غير طفولي .

– يا لك !

واتخاذل فجأة . وتتساقط من يدي وتتدحرج على الارض حلقات الخبز ، والبسكويت ، وقطع الحلوى . ويحي الجاويش ثانية تحية عسكرية .

– وانت ايضاً ، ايها المواطن ، أرجو ان تأتي معي . لغرض كتابة المحضر .

واحاول ان اجيب بهدوء وحسب الاصول وازناً الموقف :

– انا مستعجل ، ايها الرفيق الجاويش ، ليس عندي وقت . تصنع معروفاً ، فتقع في صعوبة ...

وتمر بنا عربة حمولة فارغة . واتسلل ، وامسك

بالحاجز ، واقفز عبره بكل جسمي ، وفي الحال اقفز من الجانب الآخر من العربة .

ـ قف ! قف ! ساطلق النار !

وتنطلق ورائي طلقات مثل طلقات من بندقية اطفال ، انه يطلق النار . واركض ، واغوص تحت العربات ، الى الاضواء وراء القضبان الحديدية . ولكن احداً يرتمي على كتفي فجأة ويمسك « بتلابيبي » . وأقول لاهثاً مختنقاً :

ـ اتركني ، يا شيطان ، ساذهب بنفسي .

١٥

النوم يهرب مني . ولكنني لا أفتح جفنيّ . وسمعي الآن يعوض عن بصري . والتقط كل كلمة القيت بلا قصد ، وأحفظها في ذاكرتي مثلما يحفظ البخيل قطعة نقود . فان اية كلمة منها قد تنطوي على هلاك بالنسبة لي او نجاة ، او موجه ، او اشارة خطر ، او نبأ طيب . علاوة على ذلك اخاف ان أرخي العنان لنفسي ...

والآن اسمع سيما في الممشى مقابل بابي تقنع غاليا الباكية :

ـ في وضعك هذا ، يا عزيزتي ، لا يجوز السلوك هكذا . فانت الآن يجب ان لا تفكري في نفسك فقط ...

ـ وهل افكر في نفسي حقاً !

ـ ليس هو ابرة ، بل انساناً ، يعني سيجدونه . ان كثيراً من الناس يبحثون عنه في التايغا على الايائل وطائرات الهيليكوبتر. وانت تنوحين عليه وكأنك تنوحين على ميت . وهل يسعفك الدمع حقاً ؟ .. آه ، منك ، صاحبك نيقولاي جالس الآن في بيت شتائي ، قرب الموقد ، ويضحك .

ـ ولكنني حتى لم اخبره ...

ـ ونعْم ما صنعت ، حين يعود تكون الفرحة فرحتين . وسأكون امه بالعماد ... اوه ... اوه ... اوه ... كفاية يا حمقاء . اذهبي ، واجلسي قرب المريض ... يجب ان يعطى محلولا فيزيولوجيا عن قريب .

واسمع خطوات سيما الثقيلة تتوغل في الممشى . وتجلس الممرضة ذات الوجنتين البارزتين على مقعد بالقرب مني . واشعر بنظرتها علي ، نظرة متفرسة فاحصة عدوانية . ولكن لو ان اية بغضاء ، مهما يكن الشخص الذي صدرت منه ، وقعت على جدار الكراهية الاجوف

في نفسي في الماضي، لخجلت الآن، ولشعرت بشعور آخر وغد يهرب من دين في المقامرة. في هذه الساعة كأنما تتحرك من مكانها وتتصدع كل فلسفتي . وجوه ووجوه تحدق بي ، واراها ، تلك التي قابلتني في المنعطفات الحادة : وجه رجل الميليشيا ذي العينين الواسعتين ليلة اعتقال ابي ، ووجه سيمين سيمينوفتش ، ووجه سيرغي في فسحة الفرملة ، والفتى الاشعث المسمى نيقولاي ، الذي خرج في العاصفة الثلجية ، ووجوه من في المستشفى ... معهم تناقشت طوال حياتي . وقد فات اوان التراجع ، فالحياة قد انقضت . ولا يمكن تبديلها من جديد . وانا أهرب ، أهرب متخطياً ، اذا اقتضى الامر ، جميعهم . والفتاة ما تزال تنظر الي ، وتطيل النظر ، وكأنما تتحسس افكاري . ولا اصطبر :

ــ انا لم اطلب منه .

ــ لا حاجة الى هذا الكلام .

ــ انا لم اطلب منه ، أتسمعين ؟ لا تنظري الي ، انا لا احب عندما ينظر الناس الي .

ــ حسناً ، لا انظر . فقط ، اهدأ .

ـ لماذا تهدئينني ، لماذا تهدئينني ؟ انا سأهدأ من نفسي . انصرفي ، أتفهمين ؟

ـ وهل انا الملومة حقاً ؟

ـ لا اريد ، أتفهمين ؟ اريد ان انام ، فاهمة ؟.. انصرفي ، اقول لك ، انصرفي ... أتفهمين ؟

وتنهض مسرعة ، وتهرع نحو المخرج ، متلفتة في سيرها مذعورة . وانا اصرخ ، اصرخ ، اصرخ .

١٦

... أضع في النار الصائرة الى خمود جذور شربين جاف . ويتطاير سرب من الشرر في ظلام التايغا الليلية . وتبدأ السنة اللهب الصغيرة تخرج من تحت الجذور على القشرة الجافة . وينفرج الظلام كاشفاً عن جذور الاشجار القريبة ، وباتيفون النائم على سترته المبطنة . وزياما جالس في الجهة المقابلة ، مسنداً ذقنه على ركبتيه الحادتين . وفي حدقتي عينيه تنعكس عفاريت النار الصفر. انا اعرف فيم يفكر . لقد فهمته اليوم حين خرجنا نحو النهر عبر الجدول في البحث عن معبر . نظر زياما الى القرية المنبسطة في تلك الضفة بحنين

مكشوف ، وبتعطش للدفء شديد حتى لم يعد في نفسي شك في انه ارتعب ، ولن يواصل السير . فلماذا ارتبطت به ؟

يحترم المعتقل زياما على حلو معشره ، وقدرته على سرد حكايات جذابة من تأليفه . والكتب هي الجامع بيننا . فأنا قد قرأت غير قليل ، بل ويمكن القول ، قرأت كثيراً جداً اذا أخذ بعين الاعتبار نمط حياتي . حقاً انني اقرأ الكتب حباً للاستطلاع فقط . فمن الممتع مراقبة حياة الآخرين من جانب بالرغم من انك لا تصدق بكل ما يكتب ، فان لكل كتاب موضوعه الخاص ، ولكل كتاب صدقه . بينما كل شيء في الحياة ابسط بكثير . وما قيمة الكلمات الجميلة للحياة ؟ ان الحياة كلها ، حسب رأيي ، تتلخص بسهولة في ابسط قاعدة : « فرخ الدجاج ايضاً يريد ان يعيش » .

بينما زياما بالعكس ينظر الى الكتب كما ينظر المؤمن الى الرفات المقدس . والكتاب بالنسبة له دليل تيه الحياة المشربك . وهو محشو كله افكارا . وانا اقارن روحه بثمرة كرنب : كل ورقة منها فكرة . انه يقول :

ـ ان الكتاب الجيد يضم تجربة جيل كامل .

والانسانية بفضل الكتب تتطور في توال هندسي . وانت ، يا عزيزي ، تنظر الى القراءة كما تنظر الى مادة استهلاكية . والاحسن ان لا تقرأ مطلقاً .

واستعد للهروب منذ الايام الاولى من اقامتي في المعتقل . وأتمعن فيما حولي قبل كل شيء ، وابحث عن زميل لي . انا بحاجة الى رجل ليس عنده اي شيء مقدس . وأتنقل في الاختيار من واحد الى آخر من جيراني في العنبر . ولكن الناس فيما حولي اكثرهم صغار لغطون لا يوحون بالثقة . واخيراً يقع اختياري على نيقولاي باتيفون اللص الماهر من اهل العاصمة ــ وهو شاب قصير القامة ركين البنيان له فكان مثل فكوك الكلاب . وباتيفون بليد جهم ، والشيء المهم انه وحيد في الارض كغصن مقطوع من شجرة . وهذا شيء مهم بالنسبة لي . فليس لهذا الرجل ما يفقده . ومن المستحيل اجتياز التايغا بلا زميل . فالتايغا لم تخلق للوحيد من الرجال . وقد عرفت ذلك منذ السجن الاول . واتفقت مع نيقولاي رأساً . صلك فكيه قوياً ونطق من خلال اسنانه باقتضاب :

ــ طيب .

في الليل ، قبيل الهروب ، تدحرج زياما الى جنبي .

ـ خذني ، يا سيرغي ... انا اعرف انك ذاهب . نعم ، لا تصمت ، لا تصمت ... خذني .. نفد صبري...

ـ هل جننت ؟

ـ اذا ظللت وحيداً سافقد عقلي ...

واهتز في اعماقي فجأة وتر ظل صامتاً دهراً ، ومن اهتزازه القصير الطيب هبّ في روحي دفء الامتنان للمزيف القبيح زياما الملتصق بي على هذا النحو . ووعيت بوضوح انه ليس ضرورياً لي في السفرة المقبلة ، وانه لن يكون الا عبئاً ثقيلا خطراً . وارغم نفسي على القول :

ـ اذا اصابك الذعر في الطريق ساقضي عليك .

وتتلمس يد زياما مرفقي في الظلمة ، وأحس عليه ضغطاً ضعيفاً ولكنه امتناني .

... يهزل اللهب ثانية ، فادفع الى النار ثانية جذور الشربين المفحمة . ويغطي زياما رأسه بكفه اتقاء الشرر. واسأله بخفوت :

ـ فيم تفكر يا زياما ؟

ـ ها ؟

ـ اقول ، فيم تفكر ؟

ـ هكذا ... تذكرت امي ... هي تعمل عاملة تنظيف في مدرسة ... حياتها صعبة ...

ـ دع عنك هذا .

ـ كانت تقول لي دائماً : يا زياما ، ستكون نهايتك سيئة . وأمي امرأة حسنة التفكير جداً .

ـ قلل من التفكير يا زياما ، قلل من التفكير . فالتفكير بشكل عام ترف ، ولا سيما في التايغا .

ـ لا استطيع ترك التفكير . فقد خلقت هكذا في اغلب الظن . شيء مضحك ولكنني لا استطيع ان لا افكر . أمن المعقول ان الناس يستطيعون ان يعيشوا دون ان يفكروا .

ـ يا زياما ، أخذت تؤثر في أعصابي وابسط المخلوقات تملك اعصاباً ، انت تعرف . لا احب السحر الاسود قبيل النوم . استلق ونم ، فذلك اكثر أمناً .

ـ لا اريد ان انام . لا اعرف ماذا بي ، ولكنني لا اريد ان انام ... انا ، أحسدك ، اذا اردت ان تعلم . من الغريب انني لم اخرج قط الى اي مكان . طوال حياتي كنت اصنع للناس وثائق مزورة ، بينما انا نفسي

كنت مضطراً الى ان اعيش على وثائق حقيقية . لي ام مريضة لا يمكن ان أهرب منها الى اي مكان . فكنت دائماً تحت أعين الميليشيا .

ـ استلق ونم ، يا زياما . سيكون لك وقت لتفكر بأمك . فاليوم سنستيقظ مبكراً . ويجب الاسراع اكثر حتى لا يغطي الثلج على الطريق . استلق .

ـ حسناً ، سأنام . ساحاول ان انام على اية حال . لا اعرف ، في الحقيقة ، ماذا سيحصل من ذلك .

ويلتف زياما في معطف بحار ، وينقلب على جنبه ، ويتمتم وهو يغفو :

ـ لا ، ستكون نهايتي سيئة في الواقع .

وينام في غمزة عين تقريباً واضعاً كفيه بين ركبتيه كالاطفال . وهذه آخر نومة له . وليس عندي مخرج آخر . فلو اتركه يذهب فانه سيدل احداً علي وعلى ياتفون عن قصد او غير قصد . ويجب ان اختار بين نفسي وبينه . ولم اكن بحاجة الى الارتباط بزياما . ولسبب ما املت بان له من القوة ما يكفيه ليصل على الاقل الى المكان الذي اتفقنا على ان نفترق فيه الى جهات مختلفة . نعم ، هذه نومته الاخيرة ولكنني انظر الى انسان حي

متكور ملفوف في معطف بحار مبطن ، فلا استطيع ان اتغلب على شعور الضعف الكريه في يدي .

اهز زياما هزة خفيفة . ويتقلب من جنب الى جنب طويلا ، ويتمتم في سره بشيء ما . ثم يرفع جسمه على مرفقه ، ويقول بصوت ناعس :

ــ أهذا انت ، يا سيرغي ؟

ولا استطيع ان انظر اليه . وانهض وادير له ظهري :

ــ انهض ، ولنذهب .

ويسأل زياما بخفوت وحذر :

ــ الى اين ، يا سيرغي ، ما زال الليل ؟

ــ اقول : انهض ، واترك المعطف . فانه لا ينفعك الآن .

وتصدر ورائي حركة : ان زياما ينهض .

ــ عبثاً هذا يا سيرغي ، انا ...

وننسل خلال الظلمة في وجه ريح البنيسيي . واقوده الى النهر . ويعول عند كتفي كالطفل :

ــ لا تفعل يا سيرغي . ان امي مريضة جداً . عندها حصى في الكبد .

ـ كفى يا وغد ، انا لا اسألك عن شيء .

واقول له على مقربة من النهر :

ـ سر الى الامام .

لا ارى وجهه بل اسمع همسه المضطرب للغاية وافهم ما يدور الآن في نفسه . وفجأة احس انني لن افعل هذا ، لن اقدر على فعل هذا . وغيظاً على ضعفي اقول بحقد تقريباً :

ـ سر ، يا دودة !

ـ سيرغي !

ـ سر !

وتخمد خطواته المتقطعة في نقطة ما الى الامام .

وحين اعود ارى ان باتيفون قد جلس متربعاً على معطف زياما ، كما يتربع الآسيوي ، ناظراً الى النار مقلصاً عينيه . وتتحرك فكاه الكلبيتان بتناسق . انه يأكل . ويقول اللص متمطقاً :

ـ خلاص ؟

ـ اخرس .

ويقول باتيفون وفي صوته مسالمة وتملق :

ـ مفهوم ، اعرف من نفسي ، لا يشعر المرء بالراحة بعد ذلك . انها نفس حية على اية حال ... وتثور اعصابي .

ـ اخرس ، يا وغد ! ماذا تفهم عن النفس ؟ انت دودة ، عفونة الفضلات . لو تنطق بكلمة اخرى ، امحوك .

ويصمت باتيفون .

واستيقظ من النوم وتعتريني قشعريرة ، وتهرسني هرساً . والآن أكف عن خداع نفسي . كل شيء واضح. تعود الحمى تهاجمني من جديد ، وتستولي علي . والتفّ في المعطف . في ضوء الصباح الخريفي الجهم يبدو وجه باتيفون أكثر جهامة وتسطحا مما هو في العادة . وينظر الي في ترقب .

ـ هل مرضت ؟

ـ هراء ، سنسير الآن .

واحاول النهوض ، الا ان السماء البيضاء تبهر عيني . وتنقلب التايغا على ظهرها ، ويخيل الي ان رأسي مثل كرة هائلة مملوءة برمل رنان .

ـ هل تذهب وحدك ؟

ـ انت معد .

ـ وحدك لا تصل . فالانسان الوحيد في التايغا هالك .

ـ انا اذهب ، فهناك احتمال النجاة والهلاك . بينما اذا بقينا كان الموت المحتوم لكلينا . ثم ليس عندنا ما نأكله .

ـ انت دودة ، يا باتيفون !

ـ كالجميع .

ـ هذا صحيح .

ـ لو كنت في مكاني لفعلت ما افعل .

ـ نعم .

ـ اذن .

ـ حسناً ، اذهب .

ـ سأترك لك معطف زياما ، فقد تنجو ...

واغطي نفسي حتى رأسي . ويذهب باتيفون ، يذهب الى حتفه ، ولن تقدر على رده . فتلك غريزة . وسأفعل ما يفعله لو كنت في مكانه . وبالطبع في وسعه ان يقتلني ، حتى يأخذ متاعي . ولكنه لا يجرؤ ، يخاف . وهو لا يخاف مني ، انا سيرغي تساريف ، بل يخاف من ماضيّ ...

شيء واحد يبت في الامر في كل شيء : هل

سيلحق بي الثلج ام لا يلحق . واغمض عيني ، وتغمرني موجة لافحة من الهذيان قادمة من الساحل الشديد الانحدار ، المتوج بالنخلات الثلاث ...

وافيق على نفسي ، وانا على مقربة من كومة من الرماد الخامد . وباتيفون غير موجود ، وكذلك معطف زياما ، فقد أخذه باتيفون اخيراً . وانظر الى السماء نظرة خالية من الروح ، وهي منتفخة بقطع من الاشرعة المهلهلة ، ومن خلال مزقها الكثيرة تطل من عل نجوم باردة ، باردة جداً !

١٧

استيقظ من النوم على صيحة قطعها اصطفاق باب في اقصى الممشى . ويصعقني صمت ثقيل متوتر فوراً . ويفصلني هذا الصمت عن الحياة ، مثل غطاء من الزجاج . وفي هذا الصمت شعور حاد بمصيبة . وانادي بصوت عال :

ــ يا ممرضة !

ولا يرد احد على ندائي .

ــ يا ممرضة !

ولا جواب . ويصير الصمت غير محتمل . واسند كفيّ على الارض ، واشد على قواي ، وانزل من السرير . واقطع المسافة ما بين السرير والباب زحفاً ، واخرج الى الممشى . ويدفعني الصمت الى ما وراء العتبة . وادفع برأسي الباب المغطى بطبقة من الصقيع . وفي الحال يبهر عيني نور ساطع . وتبدأ معالم الاشياء والاشجار والناس بالبروز تدريجياً في خلفية بيضاء بشكل باهر . وأرى اشباحاً بشرية سوداء تتحرك حول زلاقة تجرها كلاب الى الامام . ويصر الثلج تحت الاحذية صريراً مصماً . والممرضة ذات الوجنتين البارزتين تسير في صف الزلاقة حاسرة الرأس غائصة بالثلج بين الحين والآخر حتى ركبتيها . تسير وكأنها لا تلتفت الى شيء فيما حولها . بل تنظر الى ما يرقد في الزلاقة . انها لا تبكي ، ولا تصرخ ، بل تنظر فقط الى ما يرقد في الزلاقة دون ان تصرف نظرها عنه . ويصير الصمت ناطقاً : انا اعرف ماذا يرقد هناك . وتزايلني الرغبة في ان اصغي الى الصمت ، ولا اتحمل زئيره الملوي بعد .

واصرخ ، اصرخ من الألم ، من الاهانة .
مما لا يعبّر عنه بالكلمات :
ـ آ ـ آ ـ آ ...
وتمسكني يدان ، وتحملني الى الدفء بحذر .
ولا افتح عيني ، وأخاف ان ارى وجوههم . ولكن كل
كلمة أنطقها تنزاح عن عاتقي كالحجارة :
ـ انا هارب من السجن ... واسمي تساريف ...
سيرغي تساريف ... سيرغي الكسيفيتش .

فاسيلي اكسيونوف ولد عام ١٩٣٢ . تخرج في عام ١٩٥٦ من معهد الطب ، واشتغل طبيباً في اقصى الشمال ، ثم في مستشفى في موسكو . وقد طبعت قصص اكسيونوف الاولى في عام ١٩٥٨ ، في المجلة السوفييتية المشهورة « يونست » . وفي عام ١٩٦٠ نشرت هذه المجلة نفسها قصته الطويلة « الزملاء » التي جلبت الشهرة للكاتب الشاب (فيما بعد مثلت هذه القصة في فيلم سينمائي) . واكسيونوف الآن مؤلف قصص طويلة اخرى ومجموعات من القصص القصيرة . وكثير منها ترجم الى اللغات الاجنبية ، واشتهرت كثيراً بين القراء الاجانب .



فاسيلي اكسيونوف

من الصباح حتى الغسق

احياناً يتملكني اليأس . واحياناً انفر من فئراني وارانبي العزيزة ، وحتى من القردة ستيلا . وفي مثل تلك الايام لا أقوى على رؤية المصافي ، والاجهزة الحرارية المغرقة في عصريتها .

تستولي علي الرغبة في ان اضرب الطاولة بجمع يدي ، واخرج من المختبر صافراً باغنية « ساحلق ، اهوه ! »

وافتح باب غرفة الرئيس بقوة ، واصيح « غود باي ، ابو كرش ! » — ثم انزل الى الاسفل ، الى قسم الملاكات ، واضرب المنضدة بقبضة يدي ، واسترد دفتر الخدمة ، واخرج الى الحرية .

فهناك ، في مكان ما ، يمارس اناس رياضة المراكب الشراعية ، والصيد تحت الماء ، ويصورون في الافلام السينمائية ، ويرفعون الطائرات في الجو ، وينفخون في السكسوفونات . جمهور غفير من ابناء عمري يمارسون اعمالا رائعة ، اما انا .... اما انا فمنشغل ، دائما ، بالفئران والارانب ، والقردة ستيلا . احقنها بالحقن ، واقتل بعضها ، واحرص على حياة بعضها الآخر ، واشق ، واسجل ما تشير اليه الاجهزة .

بينما ستيبكا تشركاسوف الذي طُرد لتأخره بالدروس وهو في السنة الرابعة ، يلعب الآن في فريق الماهرين في كرة القدم . وقد طاف في طول البلاد وعرضها ، وسافر الى انجلترا ، وايطاليا . وهو يلبس كما يلبس الدبلوماسي .

ولكن ، لا بأس ، انا أفهم كل شيء . كما يقول الرئيس في اجتماع الباحثين العلميين للمعهد : « مهمة

لا مثيل لها في النبل مطروحة امامنا . الانسانية تنتظر ، ايها الاصدقاء ! » .

هذا صحيح . الانسانية تنتظر شيئاً من رئيسنا . ولكن هل تنتظر شيئاً مني ؟ انا احلل الفئران بمحاليل العيار ، وانقي المادة الحية ، وفي كل اسبوع احمل النتائج ليس الى الرئيس نفسه ، بل الى احد مساعديه . حقاً ، انهم يعدونني باعطاء موضوع الاطروحة بعد شهر ، ولكن ، اية اطروحة ستكون هذه ؟ ! « ترصدات بعض التغيرات لمادة معينة في بعض الظروف » . مجموعة مقتطفات من كتب الآخرين ، وقائمة المؤلفات المدروسة ، وتجربة ما زهيدة . فهل ستتقدم العربة من مكانها من جراء اعمالي كلها ولو واحداً من الالف من المليمتر ؟ في وسع ستيبكا تشركاسوف ان يحتل مكاني بنجاح مماثل ، اما انا ، فاظنني غير رديء في احتلال مكانه في ساحة اللعب .

يقولون ان عصر المنعزلين العبقريين قد انقضى . فانت لا تتمكن ان تخترع سفينة فضائية بعد ان تحبس نفسك مائة ليلة ، وتربي لحية ، وتسترخي . آلا ف من الناس العائشين في ظروف طبيعية ، المحروسين من

قبل النقابة ، يكدحون ، ويحصلون ، كما يبدو ، على نتائج لا بأس بها . كما يقولون ان مثل هذا الحال في قضيتنا ايضاً . ولكن ليس لنا ما نتبجح به .

ولكن لست ادري لماذا يبدو لي ان عبقرياً ما سيحرك العربة من مكانها . ربما هو الآن يسير في مكان ما هادئاً غير ملاحظ . وربما لم يولد بعد .

ولكنني لست عبقرياً . هذا شيء أكيد . لا تبدو علي مخايل العبقرية . بينما ذاك ، في اغلب الظن ، ذو دماغ كبير من طراز مريخي ، له جمجمة ضخمة ، وجسم ضئيل . ولست انا بهذا الشكل . انا طبيعي للغاية .

– يورا ، مطلوب على التلفون ! – يصيحون علي من الممر .

وانهض ، واتمطى بحيث تفرقع مفاصل كتفي . وارى من النافذة كيشا سائق رئيسنا يدور حول السيارة ، ويسكب عليها الماء من الخرطوم . وكيشا الآن يشبه حاوياً صينياً . انه عار الى النصف ، برنزي البشرة يلعب بخط من الماء ثقيل باهر يبدو لي الآن معجزة الطبيعة .

انا سعيد لانهم يطلبونني في التلفون : فالعمل لا يتقدم . لا يتقدم معي في هذه الايام الرائقة .

ــ يورا ، أهذا انت ؟ ــ اسمع في السماعة صوتاً نسائياً منفعلا.

ــ لينا ؟ ــ انا منذهل .

ان لينا ترتبط دائماً في شعوري بالامسيات ، بحشد انيق قرب محطة المترو ، بلافتات النيون ، وبالحان الجاز . انها لم تتلفن لي قط في مثل هذا الوقت . وانا لم افكر فيها قط في مثل هذا الوقت .

ــ يورا ، انا بحاجة الى ان اراك بشكل عاجل .

وهنا ، افطن الى انني اتحدث معها في تلفون داخلي .

ــ هل انت في الاسفل ؟

ــ نعم ، انزل بسرعة .

فأقول :

ــ يا للنساء ! كم اهلكتن من العلماء !

ــ كفاية ! انزل بسرعة !

وكان عليها ان تضيف « ايها العالم الاخرق » او شيئاً من هذا القبيل . الا انها لم تضف .

وانزل الدرج الى الاسفل هروبا ، وارى لينا . واصرخ :

ـ ما الذي جاء بك ، ايتها الطفلة الفاتنة ؟

هذه المحاولة الاخيرة . وقد فهمت بالفعل ان شيئاً حدث ، ولكنني لا اريد ذلك . لا احب حين تكشف الحياة عن وجهها التراجيدي . فانت تعيش ، وتضحك ، وتتشاجر ، وفجأة ـ تفضل ـ يحدث شيء ما .

ـ ماذا بك يا لينا ؟

ـ يورا ، قصدت اليك كما اقصد الى طبيب .

ـ لست طبيباً . انا باحث علمي من الدرجة الثانية . ماذا حدث ؟ قولي بسرعة ، والا فسأمل .

ـ قبل ثلاثة ايام وصل بابا الى البيت من العمل قبل موعده بثلاث ساعات ...

ـ تمرض ؟

ـ نعم ، ولا .

ـ ماذا اذن ؟

ـ كان عندهم فحص عام ، فأخذوا له اشعة اكس ، واكتشفوا في رئتيه ظلالا . وهم يفترضون انها سل .

ـ هذا ما كان ينقصك !

ـ انه لم يشتك قط من شيء ... مطلقاً ـ تقول لينا ذلك وتشرع بالبكاء .

ـ لا ، لا ، تجمعي ، واجرعي كل دموعك . ان السل اسم رهيب فقط . وهو الآن قابل للعلاج كلياً .

ـ صحيح ؟

ـ طبعاً . احمدي الله اذا كان ابوك مصاباً بالسل .

ـ وماذا يمكن ان يكون بعد ؟

ـ لا بأس ... يعني هو بخير ؟

ـ ماذا يمكن ان يكون غير السل يا يورا ؟

ـ وما اكثر الامراض .

ـ أيمكن هذا حقاً ؟

ـ لا ، قطعاً .

واخرج سيكارة ، واشعلها ، واكرر برنة معدنية :

ـ لا ، قطعاً .

بينما تنظر لينا في عيني كما يحدث في الافلام :

ـ يورا ، هل لي الحق في ان اطلب مساعدة منك ؟

ـ اي سؤال وحشي هذا ؟ من غيرك ...

ـ ساعدني في الحاق ابي بمستوصف جيد . ان لك ، في اغلب الظن ، معارف .

ـ ساحاول . انتظري قليلا .

واتلفن في معهد السل . فهناك يدرس في الاسبرانتوره احد زملائي في الدراسة .

ـ هذا انت ، يا صاحبي القديم ، ـ يقول بوريس . ـ كيف الحياة ؟

اجيبه : ـ رائعة . ـ ثم اقول له :

ـ اسمع ، أتعرف اية حاجة لي عندك ؟

ـ لا توجد فلوس ، ـ يضحك بوريس .

ـ يا الهي ، ـ اتنهد انا ـ ما اكثر ما يتبلد الناس بعد السنة الاولى من الاسبرانتوره .

واحدثه عن كل شيء . ويصيح بوريس الرجل ذو الحلول السريعة ، بان ابعث « العجوز » اليه في قسم الاستشارات سريعاً ، لان ميتليتسين نفسه سيستقبل المرضى هناك .

ـ انتظري يا لينا ـ أقول ذاك واركض الى فوق ، واطلب رخصة من الرئيس طارحاً عليه جلي الامر ، وقد صورت لينا في القصة كابنة عمي .

ـ هل هي تلك الفتاة التي جاءت عندنا في حفلة اول ايار ؟ ـ يسأل « ابو كرش » فجأة .

ـ نعم ، ـ أجيب بطريقة حمقاء ؛

ـ ابنة عم ! نحن نعرف بنات الاعمام هؤلاء . اكذوبة قديمة وحديثة دائماً . اذهب يا يورا . ربما تريد ان اكتب مذكرة الى ميتليتسين ؟

واركض الى الاسفل ، وامسك لينا من يدها . ونركض عبر الرواق ، ونخرج من الباب . وتلطم الشمس والريح وجهي ، فلا ارى شيئاً ، وادرك فجأة انني سعيد بشكل شيطاني في انني طلعت الى الهواء الطلق ، ومن انني امسك بيد لينا . هذه المرة الاولى التي نلتقي فيها نهاراً لا مساء ، المرة الاولى التي نسير فيها تحت الشمس . شيء لا يصدق ولكنه واقع . وهذا ما يهوّن الامر . ولكنني اتذكر السبب ، فاضبط نفسي .

وابدأ بتمييز اللور التي نمر بها مسرعين ، وارى امامي حديقة ، وادرك ان لينا تجرني الى هناك بالذات . هناك شيخ رائع يجلس على مصطبة قرب مدخل يقرأ مجلة « اغونيوك » . حليق الوجه معروق قوي فهو يشبه رياضياً عجوزاً ، مدرباً في التنس ، بطل سانت ـ بطرسبورغ في التزحلق او طياراً سابقاً . واعرفه في الحال . كنت

عند لينا حين كان ابواها في المنزل الصيفي ، والقيت نظرة خاطفة على صورة العائلة على الحائط .

ــ يورا ، هذا ابي ، ــ تقول لينا ــ تعارفا .

فاقول :

ــ عرفتك في الحال .

ــ اعذرني ، كيف ؟ ــ يقول مندهشاً .

ــ من الصورة .

فتضربني لينا على ظهري ضربة خفيفة ، ولكنني اوضح له باصرار :

ــ صورتكم العائلية الكبيرة . أظن انها معلقة في غرفة الطعام .

ــ نعم ، في غرفة الطعام ، ــ يقول وينظر الى لينا .

ــ بابا ، وعد يورا بان يساعدنا . الآن سنذهب لاستشارة البروفسور ميتليتسين .

ــ اشرح لها رجاء ان كل هذا الفزع لا فائدة منه ، ــ يقول ابو لينا ــ السل الآن قابل للعلاج كلياً . أليس صحيحاً ؟

ــ بالطبع . بضعة شهور للعلاج ، وكل شيء سيكون على ما يرام . لقد اوضحت لها بالفعل .

ويبدو لي ان لينا قد اطمأنت قليلا . بل وتبتسم وتهمس لي :
ــ هل فقدت عقلك ؟ انه لا يعرف شيئاً .
ذلك عن زيارتي لشقتهم .
ونخرج الى الشارع ، ونركب سيارة اجرة . وتعود لينا الى قلقها ثانية . والعجوز لا يتأثر ابدا . انه يجلس بهدوء تام .
البروفسور ميتليتسين يسير في الممر . على جبينه تتهدل خصلة شيباء ، وفي يده سيجارة مشتعلة . انه لترف بروفسوري خاص ــ ان يسير في مصلحة علاجية وفي يده سيجارة . البروفسور نحيل العود طويل كوالد لينا . أظن انهما يؤلفان زوجاً محترماً في ساحة التنس .
ووراء البروفسور حاشية معتادة . وكان بوريس فيها ايضاً . واترك لينا واباها جالسين على اريكة ، واتقدم من بوريس محيياً .
ــ من اين تعثر على هؤلاء الفتيات ؟ ــ يسأل وهو ينظر من وراء كتفي ــ يمكن حسدك . ولكن لا بأس . هل توجد للشيخ صورة اشعة وتحاليل ؟ عظيم .
ويأخذ لي مريولا ، وندخل في غرفة استقبال

كبيرة حيث يجلس ميتليتسين وراء مكتب قرب شاشة فحص صور الاشعة ، بينما تحلق حوله حوالي عشرين طبيباً . وهم بالتتابع يقرأون تواريخ امراض المرضى ، ويضعون صور الاشعة على الشاشة . وميتليتسين يدخن ، وينود برأسه وينظر في صور الاشعة . واحياناً يقول التشخيص باقتضاب ، وفي احيان اخرى يقترح على الزملاء « المناقشة فيما بينهم » .

ويأتي دورنا . ويحدث بوريس البروفسور عن ابي لينا ، ويعرض عليه التحاليل ، ويضع صور الاشعة واحدة بعد الاخرى .

ويصمت ميتليتسين طويلا ، وينظر بتدقيق شديد الى الصورة الامامية ، وننظر جميعاً الى البقعة الواضحة المستديرة بحجم قبضة يد طفل في الرئة اليمنى .

ــ بقعة رهيبة ، ــ يقول البروفسور ، ويخلع نظارته ، واكتشف ان له وجهاً تعباً جداً .

ــ أترى ، يا انتون بتروفيتش ، ان هنا ؟ .. ــ يسأل بوريس ، ويلقي علي نظرة ذعر .

ــ نعم ، بالطبع ، هذا سرطان . انه سرطان مركزي غير قابل لاجراء عملية .

وأُصعق . كان ذلك اول فكرة طرأت لي ، حين قالت لي لينا انهم اكتشفوا شيئاً في أبيها ، ولكنني نطقت بكلمة غبية «لا ، قطعاً» في نبرة حديدية ، وآمنت انا ايضاً بذلك . ظننت أن تلك الافكار الرهيبة تطرأ على ذهني بسبب عملي ، وحتى في سريرة نفسي كنت اضحك من نفسي .

تحدث البروفسور الى مستمعيه طويلا عن تشخيص السرطان بواسطة اشعة اكس ، وكيف ينظرون الى هذه القضية في اميركا ، ويقول : طبيعي أن من الضروري اجراء فحوص اضافية ليكون التشخيص قاطعاً ، وانه سيأخذ هذا المريض اليه في قسم التشخيص ، وبالطبع ، سيجري له دورة من العلاج باشعة اكس . انه يقول كل هذا الكلام بلهجة اعتيادية على نسق واحد .

ولكنني رأيت وجهه حين انزاح عنه مع النظارة القناع المألوف لحاكم عرفي . وادركت انه تعب وان من الصعب عليه ان يحكم على الناس .

— لنذهب الى غرفة الاشعة . اريد ان افحص المريض تحت الشاشة .

وينهض جميع الاطباء من المقاعد في ضجيج .

واكون انا اول الخارجين الى الممر . ان شيئاً فيه قد تبدل . من المحتمل ان ذلك هو وجوه المرضى الذين تفرسوا بي .

بينما ابو لينا يقرأ مجلة « اغونيوك » المصورة الاسبوعية بهدوء . وركبته النحيلة تبرز الى امام مغطية بالقماش الرمادي الجيد ، وحذاؤه الاسود الجميل يتأرجح .

ولينا تتحدث مع امرأة .

وكل ذلك غريب الى درجة كبيرة .

واقترب واسمع صوت لينا . انها تسأل المرأة :

— شفيت كلياً ؟

— نعم ، كلياً ، — تجيب المرأة .

فاقول انا :

— ان البروفسور يريد ان يفحصك .

يعطي العجوز المجلة للينا وينهض .

ومرة اخرى نرى تلك البقعة الرهيبة ، على الشاشة المزرقة في هذه المرة . انها الآن تتحرك ، ولا تبدو مستديرة كما هي في صورة الاشعة . ويحرك البروفسور والد لينا من وراء الشاشة بيديه المقفزتين بقفازين من المطاط السميك .

ـ نيو ، ـ يقول البروفيسور ، ـ نيو قطعاً .

ويشتعل الضوء ، وينهض البروفسور ويضع يده على كتف والد لينا . ما اشبه احدهما بالآخر ! زوج رائع من لاعبي التنس ـ شيخان نحيلان طويلان .

ـ ايها العزيز ، سأدخلك الى قسمي ، قسم التشخيص .

ـ أمن المعقول ان التشخيص غير واضح ؟ ـ يسأل الاب هذا السؤال .

ـ ليس واضحاً كلياً .

ـ شكراً لك .

ويخرج البروفسور من غرفة الاشعة ووراءه جميع الاطباء .

ونبقى وحدنا : بوريس وابو لينا وانا . ويرتدي الشيخ ملابسه . واقول انا :

ـ هكذا اذن ، سيعالجك البروفسور ميتليتسين بنفسه .

ـ دع عنك هذا ، ـ يقول الشيخ بصوت لا رنين فيه ـ أتظن انني لا اعرف ما تعني كلمة «نيو» ؟ انها تعني خراج نام .

ــ وليكن وماذا في ذاك ؟ ــ اقول انا ذلك ، ــ هناك خراجات غير خبيثة .

ــ دع عنك هذا ــ يكرر الشيخ قوله ، وهو يزرر الزر الاعلى في قميصه ، ويسحب ربطة العنق . ويقول :

ــ هذا ما اطلبه منك يا يورا . تفاهم مع لينا . ليس من الضروري ان تكون علاقاتكما كما هي الآن . من الأحسن ان لا تكون ابدا . هل انت موافق ؟

ــ نعم ، نعم ، ــ اقول انا ، واشعر بالخجل من انني لا اعرف حتى اسمه .

واتناول مذكرة ميتليتسين من الطاولة ، ونخرج الى الممر . ولينا تسير هناك .

تتمشى مع المرأة التي شفيت . والظاهر ان لينا قد هدأت كلياً . انها تبتسم فرحة لدى رؤيتها لنا .

وانظر الى شعرها المبعثر بشكل مقصود ، والى شفتيها المصبوغتين بشكل ماهر ، والى حذائها على كعب عال والى تنورتها العريضة ــ الى كل شيء كان يطربني فيها من قبل ، وكل ذلك يبدو لي الآن تفاهة وحشية .

انا ارى الفتاة التي لا تعرف شيئاً بعد ، الفتاة العزيزة علي .

ــ شكراً ، يا صاحبي ، ــ اقول ذلك لبوريس .
وتستأذن لينا من المرأة ، وننزل نحن الثلاثة الدرج .
ــ يا لينا ، ان ميتليتسين يأخذني الى قسمه .
هذا توفيق كبير .
ــ رائع ! ــ تقول لينا ــ انت يايورا ، هيأت كل شيء بروعة .
نعم ، ما اروع ما هيأت كل شيء . ان كل شيء بخير لانه ينتهي بخير ــ هكذا تفكر لينا كما يبدو .
واخرج سيجارة . الآن سادخن دون انقطاع .
ــ اعطني سيجارة ــ يهمس الشيخ في اذني . وادس له العلبة سراً .
ما يزال النهار المشمس الريحي في الشارع . وفي المنعطف يبيعون الدندرمة . ويحتشد الناس قرب مساقي الماء الاوتوماتيكية . وتسير سيارة لوري بمقطورة تنقل الصفائح الكونكريتية . ويقطع رجل ميليشيا ذو قميص ازرق الشارع جرياً . ويمر سواح يحملون اكياس ظهرية هائلة بشكل مفرط . وفي كل الاكشاك توجد فراولة . تلال حمراء داكنة من الفراولة ، وثمار على هيئة قنابل لها ذيول خضراء ، وعليق مهروس . برك من العصير

الاحمر . اصابع البائعات السوداء . اعلان صالة الموسيقي الصيفية . وجاء فتى في قميص مذهل . وتسقط النقود المعدنية محدثة صوتاً رناناً . وشخص ما يطبع قبلة . وينفرج فم عن قهقهة وراء زجاج كشك التلفون .

ـ انا الآن ذاهب الى المصنع . يجب ان اخبر بونين بسير العمل . اما انت فاذهبي الى البيت ، وقولي لماما بان تجمع لي حاجياتي للمستشفى .

ـ نعم ، بابا .

ويقدم الاب لها خده . فتمسه لينا بخدها مخافة ان تلطخه بطلاء شفتيها . وللحظة خاطفة ارى عينين جنباً الى جنب ـ عين الاب وعين لينا ـ واندهش ، كيف يمكن ان تكون قريبتين هكذا هاتان العينان المختلفتان جداً ؟

ويمد لي الشيخ يده . ويقول :

ـ انا سعيد بمعرفتك .

واصمت ببلاهة ، وانظر الى يدينا ، والى اصابعه باظافرها المسطحة المصفرة ، تلك الاصابع التي تضم كفي .

وينصرف الشيخ ، واظل وقتاً طويلا دون ان اقوى

على انتزاع بصري عن قامته الرشيقة التي تلوح بين جمع الناس . ان رأسه خال من أقل علامة على الصلع .

ــ هل أعجبك ؟ ــ اسمع لينا تسأل .

ــ جداً .

ــ انت تدري يا يورا ان المرأة هناك راحت تحدثني في الممر . انها معلمة ، وحين اصيبت بالسل اضطرت الى ترك المدرسة . والآن قد شفيت تماماً ! بحيث انهم سمحوا لها بالتدريس ثانية . وقد انتظرت شهادة الشفاء بلهفة . أليس هذا عظيم؟

ــ انا قلت لك ذلك ، ــ اتمتم ذلك .

ــ ماذا بك ، يا علامة ؟

ــ لينا ! ــ اقول ذلك وامسكها من يدها ــ سافكر فيك دائماً . وحين لا افكر فيك ، سافكر فيك على اية حال . فاعرفي ذلك . دائماً وفي كل مكان .

ــ ماذا بك ؟

واجذبها الي ، واقبلها وسط بائعات الدندرمة والفراولة ، والسواح ، والمتأنقين ، ليشهدوا جميعاً على ذلك !

ولا اتحمل اكثر من هذا . واجلسها في سيارة اجرة ، واركض انا الى المترو واجري على السلم الكهربائي ،

واقفز الى العربة ، واباعد بين ضلفتي الباب المنغلقتين ، واجلس ، ثم انهض ، واسير الى نهاية العربة ، وانظر من فوق كتف شخص يقرأ جريدة ، واقرأ عنوان المقال الافتتاحي ، ثم (حين ادار الجريدة) ارى شيئاً عن كرة القدم ، وانزل في محطتي واركض الى فوق على السلم الكهربائي ، وفي الاعلى اشتري دندرمة « لينينغرادسكويه » امقتها ، واخرج الى ساحتنا ، وما ان المح زجاجات معهدنا العريضة ، وواجهته الواسعة حتى اتحول الى المشي .

وينظر الي الناس في المدخل في دهشة . وارتقي السلم واسير في الممر وتعيدني الى نفسي رائحة الفيفاريوم ، وكأنما هي رائحة النشادر .

واعدل ربطة عنقي ، واصفف شعري ، والقي في القمامة بحذر الورقة الكريهة التي كانت الدندرمة ملفوفة فيها ، وادخل الى المختبر . كانت آنا ليونوفنا تخلع مريولها .

ــ لماذا جئت تعدو يا يورا ؟ ان يوم العمل قد انتهى .

فاقول :

ــ اريد ان ابقى هنا قليلا .

ـ هل عندك فكرة ؟

ـ نعم ، افكار .

واقترب من النافذة .

تخرج من الفناء سيارة غسلت الى حد اللمعان المذهل .

ان كيشا سيتقدم بها نحو مدخل البناية وفي الممشى تتردد بالفعل خطوات الرئيس العجوز البطيئة .

واتناول من الرف مجلة ، واقرأ مقالة رئيسنا ، يناقش فيها احد باحثي السرطان الاجانب .

ساعمل اليوم هنا حتى الغسق .

يجب التعود . منذ الآن ساطيل الجلوس هنا .

وتمر عشر دقائق ، عشرون . وبالتدريج تبدأ افكار المقالة تدخل في رأسي .

ادوارد شيم ولد في عام ١٩٣٠ . تخرج في عام ١٩٥٠ من المدرسة المعمارية ، الا انه لم يعمل طويلا في حقل اختصاصه . سرعان ما دعي الى الجيش وأصبح صحفياً عاملا في جريدة الجيش . وهناك بدأ نشاطه الادبي . في الاعوام الاخيرة نشر شيم ، بعد ان أصبح كاتباً محترفاً ، بعض المجموعات القصصية . ان « ملكة وسبع بنات » هي اشهر قصة لشيم نشرت في عام ١٩٦٢ في مجلة « زناميا » .



ادوارد شيم

ملكة وسبع بنات

١

آه ، ما أروع النهر الذي سار فيه المركب الجرار « غروزني » ! لم يكن النهر قليل المياه ليعيق المركب في كل خطوة ، ويعترضه ببقع الضحالة الخدّاعة ؛ فقد كان المركب ، على اية حال ، باخرة كبيرة حقيقية ، وحتى له صارية ، وكان يجر وراءه صندلين واطئين محملين بالقرميد والواح الخشب .

كما لم يكن النهر ممتلئ البطن بالماء ليتعالى ويهز المركب على الامواج المتخطرة ؛ فقد كان المركب ، على اية حال ، هرماً ، ضعيف القوى ، مثل مكواة قديمة ، سوى انها بلا قبضة ...

لا ، كان نهر « لوزا » كبيراً وهادئاً بقدر مقبول .

يجري متمهلا بين الحقول وغابات البتولا ، كاشفاً عن سبل للملاحة مريحة ، وخلجان هادئة فيها اوراق زنابق الماء ، والماء فيها مذهب قليلا بعصفرة كتلك التي تكون للعسل الجديد المتلألئ ؛ والتيار لم يحرف الصندلين ، ولم يدفعهما من جانب الى جانب ، بل بالعكس ، صفهما وراء المركب في خط مستقيم ، وكأنه كان يحاول ان لا يلهث كثيراً .

وعلى الجانبين كان الشاطئان الرمليان الاحمران المثقبان باعشاش الخطاطيف يستديران وكأنما على ارجوحة بطيئة ، وانكشفت حقول تلالية ، وقرى قليلة ، وأقبلت احراش بتولا تخللتها اشعة الشمس الشفافة ، وامتلأت بالهواء . وبين الحين والآخر كانت تطل على النهر شجرة بتولا هنا ، واخرى هناك ، مخططة بالابيض

والاسود ، وكأنها مثل حاجز مرفوع على خط السكة الحديدية .

كان الوقت في نهاية آب ، والصيف لم يرحل بعد ، بينما الخريف قد أطلّ ـ كأن فصلي السنة يتنازعان فيما بينهما .

كان العُضيض ما يزال مزهراً في بقع الحريق . وكان العشب مزرقاً بالشيكوريا البرية ، وعلى طول الطرق لمعت زهور الكالوجنتسا مثل نجوم صفراء في بلل ، وكانت احراش العجرم العالي السهل الانكسار ما زالت تحمل ازهارها . الا ان نسيج العنكبوت اللزق الخفيف كان يتطاير في الريح مثل مطر أعمى ، وفي مكان ما تساقطت الاوراق من الاشجار . واسقطت اشجار البلوط ثمارها القويمة المشمعة ؛ وفي الخلجان النهرية أنزلت النبتات النهرية الى القاع براعم نائمة مستعدة الى ان تقضي الشتاء في القعر المظلم ، وتحت الماء انفجرت لوزات زنابق الماء المنتفخة اللزجة ، وجرف التيار بذورها .

ومنذ اسبوع فقط تفرقت واختفت خطاطيف القرية والسناسير ، واتجهت نحو الجنوب بمحاذاة الانهار

طيور الشُنْقَب على سيقانها الطويلة الرقيقة ـ وكان الطين المخملي المخضر في الامكنة الضحلة مغطى بآثار اقدامها تماماً .

اما القرى فكانت في هذه الايام تفوح برائحة الشمرة والخيار ، وفي الايام الجافة كانت تقلع البطاطس ، وفي كل مكان كان يرتفع الدخان الحامز من بقايا جذور البطاطس المحترقة . وكانت سيارات اللوري تثير الغبار في الطرق طوال اليوم ، اما الحقول فكانت تتعرى بالتدريج ، وتقفر ، ولم تبق فيها الا حزم الكتان الاكوام من الحشيش المجفف التي لم تمشطها الامطار بعد .

وعند الظهر كثيراً ما يدفأ الجو ، ويكون خانقاً احياناً ، ومع ذلك فان قطرات الندى الثقيلة الغزيرة ظهرت قبيل الليل ، ولوت العشب ، والشجيرات . وعند الفجر ظل الضباب وقتاً طويلا قبل ان ينقشع ، وتساقطت قطرات الماء من السطوح والاشجار ، وكان يخامر النفس شعور قوي بشكل خاص بان زمن القرس على الابواب .

وقف مسافران على ظهر « غروزني » ممسكين باقواس المركب الواقية . كان من الممكن ان يعرف

المرء من النظرة الاولى انهما شقيقان . كان لكليهما كرتان حمراوان على وجنتيهما ، وعلى الوجهين الناتئي الوجنتين تهدلت فوق الجبينين خصلات شعر اشقر خشن، وكانت لكليهما عينان ذواتا لمعان واحد ، رماديتان حولاوان قليلا تحت رموش باهتة . كان الاخوان متشابهين جداً ، الا انهما كانا مختلفين في سلوكهما .

دخل الاخ الكبير اليوشكا العام الرابع عشر من عمره ، وطبيعي ان اليوشكا شعر ، منذ زمن طويل ، بانه انسان راشد . وكان قد اضطر ان يسافر على زورق بخاري مع ابيه عدة مرات ، والآن قلَّ ما كان يدهشه شيء . وللحيطة لم يظهر اهتمامه بهذين الشاطئين المارين بقراهما الهادئة ، ولا باعمدة الاشارات المخططة فوق المنحدرات ، ولا حتى بهذا المركب اللاهث ، الحار بشكل رطب ، والمشبع برائحة النفط والدهان . كان اليوشكا ، طوال الطريق ، هادئاً بخلو بال ، وغير منفعل ، وحين ألحَّ عليه الاخ الصغير بالاسئلة أجاب اليوشكا بتلطف ، وكأن الكلام كان يجري حول أتفه التوافه :

ـ هذه ؟ هذه مجرد عوامة لارشاد البواخر ، مثل مصباح تنظيم المرور في الشوارع .

ـ هذه ؟ صارية اشارة اعتيادية . تشير الى عمق خط الملاحة .

ـ هذا ؟ هذا لا تفهمه على اية حال .

كان الاخوان مسافرين الى المدينة بعد صيف كامل قضياه في حاضرة في الغابة . وصادف ان اي شخص من اقاربهما لم يستطع مرافقتهما . وقد عرف اليوشكا بنفسه الى اين يسافر المركب «غروزني» ، بنفسه قاد اخاه الصغير الى المركب ، قائلا للربان في اهمال : «نحن من كوزمين . وقد طلب اليكم ان توصلونا ...» والآن وهو في المركب لم يشعر بشيء غير مألوف . والى الامام ما يزال هناك طريق طويل ، وكان ذلك شيئاً رائعاً : الاحساس بأنك تسافر حراً ، ووفق ارادتك ، ولا احد يراقبك ، ولا احد يرعاك كطفل صغير ...

خرج الربان الى سطح المركب صافقاً باب القمرة المصنوع من الالواح الخشبية . وكان الربان مديد القامة ، بديناً ، وذا شعر كثيف : بدا وكأن القميص الاصفر المغسول كثيراً لم يكن ملبوساً فوق جسم عار ، بل على فروة غنم سوداء . ولم يكن يلوح على وجه الربان

غير عينين زرقاوين ، كالمثقبين ، وأنف مكور بحجم قبضة اليد ؛ وما عدا ذلك اختفى وراء الشعر . اتكأ الربان على القمرة متنفساً بضوضاء ، وأخذ يحك ظهره بقائمة الباب . وصرت الالواح ، وأ َنَّ الربان ، وتحرك الشعر الموجود تحت أنفه ، ومال جانباً : ابتسم الربان في لذة . اقترب اليوشكا منه على مهل ، واخرج من جيبه علبة سيكائر ، وقال وهو ينظر الى جانب :

ـ هل ندخن ؟

كان اليوشكا يُحسن التصرف .

اما الاخ الصغير ستيبا فقد أكمل العام السابع من العمر لتوه ، وما يزال لا يفهم الكبار دائماً .

مثلا انه لم يتصور كيف يمكن ان تنظر فيما حولك في عدم اكتراث . كانت عينا ستيبا مفتوحتين بنهم طوال الطريق ، ولم ينظر مجرد نظر بل كان ينفعل مع كل شيء يدهشه : تعجب وجمد من الرعب ، غضب وفرح .

ثم انه كان يرى كل شيء ليس كما نراه نحن .

ان الساحرة العجوز الخالدة ـ تلك التي يعرفها الكبار باسمها ، ويتذكرونها غالباً ، ولكنهم نسوا

التحدث معها بلا مترجمين ـ وقفت قرب ستيبا تريه العالم المتكشف له .

والعالم هذا لاح غير مألوف .

على اوراق زنابق الماء المتأرجحة جلست ضفادع محدبة . كانت هذه الضفادع ايضاً غير اعتيادية ـ على رؤوسها تيجان ذهبية صغيرة ؛ وقد شيّعت ستيبا بعيونها الجاحظة اللامعة بخبث ، ونقنقت كاجراس زجاجية ، والقصب الطويل المتكاثف انحنى لستيبا ؛ وغابة البتولا على الشاطئ كانت مرة تبتسم ، مشعة بضوء الشمس ، واخرى تعبس ، وتخفي ابتسامتها حين تغطي السحب وجه الشمس . وحتى الاحجار المثقبة الراقدة في الاماكن الضحلة كانت كائنات حية ـ كانت تدفئ ظهورها المدورة ، وترسل الفقاعات بشكل مضحك حين كانت الموجة تغطيها . وبالطبع كان كائناً حياً ايضاً هذا المركب الملطخ الاهوج الناخر بطيبة قلب ، تماماً مثل حصان دؤوب قاده الاطفال للاستحمام . وتظاهرت امواج النهر بانها تخاف من المركب العجوز ، فكانت ، تتنحى عنه جانباً ، ثم ظهرت من الوراء وتغسل ذيل المركب خلسة . والمكان الذي كان لولب

المركب يدور فيه كان مسخماً بشكل خاص ، وذا خطوط مازوتية ، وكانت امواج النهر في توثبها ودورانها تمسحه بزبد ابيض هش .

... لماذا ، عندما كنا نكبر ، كان يقل اعجابنا بزهور الحقل النامية على جوانب الطريق ، ومطر نيسان المضبب الصامت ، واوراق الاسفندان المتجمدة في الجليد النهري المغبَّش — بتلك الاعاجيب التي أعجبنا بها في الطفولة ، والتي ما تزال اعاجيب ؟

مَنْ يذكر منا زهور الثلج الاولى ؟ فنحن قد رأيناها في الماضي ، وأعجبنا في وقت ما بهذه الاعجوبة ...

الثلج الذائب يخرخر ويرسل صريراً في الغابة ؛ وهو شفاف تقريباً ومحبب ، ومشبع بالماء . والشمس في النهار كانت تدفئ جذوع الاشجار ، فتذوب دائرة من الثلج حولها فتلوح الاشجار وكأنها جالسة في اكواب . وهذه الاكواب صغيرة في مجامع النبت والشجيرات الصغيرات ، وبعضها بحجم صحن القدح ، ولكن كل جذع صغير ، على اية حال ، وحتى أدق الجذوع ، يشرب الماء من صحنه .

وهنا ، تحت مجامع النبت ، انحنت السهام اللدنة المصفرة المخضرة المغطاة كلها بطبقة شمعية ، سهام زهور الثلج خارقة حافة كومة ثلج . وزهورها ثقيلة ومتدلية الى الاسفل ، وكأنها قطرات متهيئة لان تسقط . وفي البداية فقط تبدو بيضاء ؛ فانظر : ان هذه الزهرة تلوح وكأنما تتماوج مضاءة من الداخل ، وقد جمعت في نفسها الواناً عديدة مثل ما يجمع شعاع الشمس كل الوان الطيف الضوئي .

وفي الاغباش حين يبدأ التجمد تنزل السهام اللدنة ، وتختفي زهور الثلج في الثلج . والقطرات الحية دافئة ، انها تتنفس ، ومن انفاسها تظهر في الجليد ثغرات صغيرة ...

ثم أليست اوراق البتولا الخريفية اعجوبة حقاً ؟ وكم من مرة رأيناها ، ولكن هل نفهم حتى النهاية اية اعجوبة هي ؟ لقد تعودنا على ان نقول تكراراً : « الاوراق الذهبية » بينما الاوراق في الخريف ليست ذهبية . عندما تشيخ الورقة تصير وكأنها مزّينة شفافة في كلـر ؛ وفيها الثقوب الصغيرة تظهر من خلال النور ، وحوافي الورقة تتغضن وتسود ، وكأنها قد احترقت ،

قد مستها نار التفسخ البطيئة . وفي الصيف كانت على الاوراق ملايين الكائنات غير الملحوظة : قمل النبات غير المجنح مثل رشاش ماء كدر ، وعناكب سوداء وصفراء ورمادية ، وبق الغابة القوي الرائحة ، الشبيه بالحراشف الخضراء ، والدود الاشعث المفلطح الرأس ، والخنافس السريعة الحركة . الآن لم تعد تختفي ، انها تسرع مرتعصة وتعيش آخر ايامها ، وتقضم ، وتلتهم ، وتمتص من الاشجار آخر نسغها البارد ... ومع ذلك فان الاوراق الموحلة المتفسخة المغطاة بالطفيليات رائعة . وتقيم الالوان اللاهبة مهرجانها بسطوع . وتبدو الاشجار الخريفية مثل باقة من النور الشمسي ... أليس هذا اعجوبة ــ الوحل ، والتفسخ والموت يتحول فجأة الى جمال ؟

لماذا لم نعد نرى هذه الاعاجيب ، ولماذا نسيناها ، ونحن نتقدم في السن ونصبح ، في الغالب ، أذكى وأبصر ؟

ــ دخن ! ــ قال اليوشكا للربان مادأ اليه علبة السيكائر ــ التدخين يساعد على طرد البعوض .

ــ اها ! ــ وافق الربان .

وتناول الربان علبة دون ان ينظر ، وجهه خال من التعبير ، تماماً مثل اليوشكا ، ودس علبة السيكائر في جيبه دون ان يفضها . وقال في وداعة :

ــ يساعد . بل يساعد جداً ضد البعوض .

وتحيَّر اليوشكا ، وظل بضع ثوان متحيراً هكذا ماداً يده . ولم يدرك رأساً ما يعني هذا . كان من الممكن توقع شكر ، او رفض مؤدب ، وحتى موعظة ، كأن يقول أليس مبكراً التدخين في مثل هذه السن . ولكن الربان اكتفى بان أخذ السيكائر ووضعها في جيبه . وكأنما السيكائر كانت له . وكأنما لا يمكن الافتراض بأن السيكائر عائدة لاليوشكا . وكان صوت الربان عميقاً رقيقاً . ولهذا السبب رنَّ في سخر شديد :

ــ يساعد ، بل يساعد جداً ضد البعوض .

ــ هاه ... كيف ... هات ! ــ تمتم اليوشكا متلعثماً . ــ ما هذا ! لندخن !

ــ بالتأكيد . كيف لا ندخن ، ــ قال الربان ونظر الى اليوشكا لاول مرة . وهنا ، تحت حاجبيه المتدليين شعَّ ضوءان صغيران بحدة ، وبالاحرى بلورتان ، وخدشتا وجه اليوشا . كانت النظرة مألوفة ، فبهذه النظرة نظر الربان

حين صعد اليوشكا الى المركب من على جسر الصعود وقال في اهمال : «نحن من كوزمين . هو طلب ان توصلنا ...»

عند ذاك ايضاً شعر اليوشكا بحراجة . وفكر فجأة بان الربان لم يعجب بهذا التصرف في اغلب الظن ، انه ، ربما ، الحد الاقصى من عدم المجاملة ، ان تدخل المركب بلا سلام ، وبلا اذن ، مجرد ان تقول على الماشي : «نحن من كوزمين . هو طلب ان توصلنا ...» وشعر اليوشكا بالحراجة. واحمرّ قليلا ، ولكنه نسي ذلك سريعاً ، وكف عن القلق .

كان ايغور اندرييفيتش كوزمين ، والد اليوشكا ، رئيساً لكل استثمارة الاخشاب هنا ، وتخضع له جميع الجرارات ، وناقلات الخشب المنطلقة في الطرق ليلا ونهاراً ، وجميع الارصفة الصغيرة والكبيرة على نهر لوزا ، وجميع الزوارق البخارية والصنادل والمراكب العائمة فيه . وقد بدأ اليوشكا شيئاً فشيئاً يستخدم لقب ابيه ككلمة مرور — رغم ان احداً لم يعلمه ذلك ؛ بل ان الام والاب لم يفكرا في انه سيفعل ذلك . ادرك الصبي انه يستطيع ان يدخل مطعم الاستثمارة بان يقول : «انا من كوزمين...»

(ليس : «انا ابن الرفيق كوزمين» او «انا القب بكوزمين» ببساطة ، ولكن هكذا كما يقول الكبار ، ومثل عارف بالامور : «انا من كوزمين») ، وسيطعمونك حتى الشبع في غرفة المدير ؛ وفي المستطاع ان توقف السيارة في الطريق بهذه الكلمة ، وسيوصلونك الى حيث تريد ... بالطبع ان اليوشكا لم يفعل ذلك مراراً ، والاصح مرتين او ثلاث مرات فقط دخل فيها الى المطاعم ، وركب السيارات ، ولكنه ، على اية حال ، تعود على كلمة المرور المريحة . واذا حدث ان تعارك مع احد ، او انسل الى حديقة غريبة لبقطع التفاح ، او يدخل النادي ليشاهد فيلماً سينمائياً بلا تذكرة ، استطاع اليوشكا دائماً ان يتصرف بجرأة ، وأشجع من الآخرين ، لان الآخرين ربما يعاقبون ، اما هو ، اليوشكا ، فمن المشكوك فيه ان يُمس بتعنيف .

وطبيعي لو كان الاب يعرف ذلك لنال اليوشكا جزاءه . ولكن لسبب من الاسباب كان يروق لاليوشكا الاحساس بهذا الخطر ايضاً .

واليوم أوصل الاب اليوشكا وستيبا الى المرفأ ليسافرا على زورق بخاري عابر الى المدينة . ولم يكن مأمور

المرفأ موجوداً في تلك الساعة ، ولا بائع التذاكر ، وكان الاب مستعجلاً ، ولا يستطيع الانتظار . فأعطى لاليوشكا ثمن التذكرتين ، وكتب للمأمور ورقة ، وانصرف مسرعاً ، وعاد الى الحاضرة . وكان بوسع اليوشكا ان يتصرف كما يتصرف جميع الصغار الاعتياديين ، ان يسلم الورقة الى مأمور المرفأ ، وان يشتري تذكرتين لركوب الزورق البخاري ، ويسافر الى المدينة تحت مراقبة مَنْ يعرف من الملاحين. ولكن ليس عبثاً ان كانت لاليوشكا تجربة حياة ، وكانت له كلمة مرور سرية ... ولم يسلم اليوشكا الورقة ، وصرف الفلوس على اشياء غير التذكرة تماماً : اشترى من حانوت المرفأ زجاجتين من المرطبات ، وعلبة ملبّس ، وعلبة سيكائر « بيلوموركنال » . ولم ينتظر الزورق البخاري ايضاً . عندما وصل المركب « غروزني » من الشمال ، فكر اليوشكا بان السفر عليه سيكون أروح وبعد خمس دقائق كانا على ظهر المركب . بحلق ستيبا بعينيه غير فاهم شيئاً . اما اليوشكا فقد قال باهمال : « نحن من كوزمين . هو طلب ان توصلنا ... »

كان الربان حينذاك واقفاً قرب جسر الصعود الى الباخرة بالقرب من الملاح الشاب الذي كان يشد طرف

الحبل ، ومرّ اليوشكا بهما فرحاً بان كل شيء سار سيراً حسناً ؛ وفجأة ألقى هذا الربان على وجهه نظرة خادشة ازدرائية بشكل صريح ، وكأن اليوشكا تعثر بهذه النظرة .

اما ستيبا فقد نظر الى ربانه بفرح شديد ، وترقب بنفاد صبر حتى كان يجب ، حقاً ، ان تكون بلا قلب لتقوم باعمال بسيطة ، وليست عجيبة .

والربان قام باعمال عجيبة .

حين خرج الربان الى ظهر المركب بقي الملاح الشاب وراء الدفة في قمرة القيادة . كان يدير الدفة بحماس ، الا ان المركب العجوز الذكي لم يكن يخضع للبحار الشاب بل للربان . « يسار ... يسار ايضاً ! .. » — قال الربان بصوت خفيض ، وأخذ المركب يسير بانسياب الى الجهة اليسرى . « زدْ السرعة ... الى الآخر ! » قال الربان ذلك ، وامتثل المركب للامر ، وبدأ يسير أسرع فأسرع ، نافشاً شاربيه الابيضين ، دافعاً بأنفه الموج المتباطئ .

بعد العطفة كان النهر مستقيماً صافياً ، وعلى الشاطئ

الى اليسار كانت تنبسط المروج والحقول عريضة ، بينما ارتفع الشاطئ الأيمن فجأة ، وصار يبتعد نحو السماء . كان يصعد الى فوق بشكل حاد حتى ليس بوسع احد ان يلحق به . وتعبت غابة البتولا قبل الجميع ، وتوقفت على مسافة غير بعيدة من السفح ، وقبعت الاحراش الكثيفة المهملة في منتصف المنحدر ، وارتفعت البيوت الخشبية الصفراء العيون الى نقطة أعلى يساعد بعضها بعضاً ، ولكنها لم تبلغ القمة على اية حال ، وكانت هذه القمة المظلمة قرب السماء خاوية وجسيمة .

مدّ الربان الواقف قرب القمرة يده في فتحة الباب ، وسحب حبلا . وغلى برميل نحاسي صغير على مدخنة المركب ، شبيه بسماور صغير ونخر . وفاض على النهر هذا الصفير الكثيف الثقيل المتمهل بصورة غير اعتيادية . بدا وكأنما اهتز الماء والشاطئان ، وردت عليه الغابة الصامتة ، والصدى المذعور ، وكأنما راح يرتقي الجبل على درجات . وردت القمة على الصفير بعد الجميع ، بعد الشاطئين والاشجار والمنحدرات الجبلية . ردت بصوت عميق باطني مهيب حتى سكنت جميع الاصوات الاخرى على النهر حالا ...

ـ ما هذا ؟ .. لماذا هذا ؟ ! ـ سأل ستيبا الربان بهمسة اعجاب .

ـ نحن نسلّم على مَنْ سمي المركب باسمه ـ قال الربان ذلك ، وأطفأ البلورتين الموجودتين تحت حاجبيه ، وانفرج شارباه بابتسامة ـ على ايفان غروزني الحقيقي .

ـ ومَنْ هو ايفان غروزني الحقيقي ؟

ـ كان قيصراً ـ أجاب اليوشكا ، ناظراً الى الأعلى من رأس الربان .

قال الربان :

ـ لا ، ليس قيصراً . كان رجلا بهذا الاسم ... ايفان سيرغييفيتش غروزني . من هذه القرية .

ـ آه ... ـ قال اليوشكا ـ سمعت بذلك . قام بعمل بطولي . صحيح ؟

ـ لا اعرف ـ قال الربان ـ ربما .

ـ وكيف ذلك . انت تسلم عليه بالصافرة . تؤدي له التحية . ليس بلاسبب ، بل لشيء ما . أليس كذلك ؟

قال الربان :

ـ كان يعمل . عمل طوال حياته : ساق الارماث ، ونقل الحمولة . هذا كل شيء . ومات في مركبه . على هذا المركب بالذات .

قال اليوشكا :

ـ يعني قام بواجبه حتى النفس الاخير . الآن كل شيء واضح .

ـ نعم ـ أكد الربان ، بعد ان صمت قليلا ـ بالطبع ... قام بواجبه حتى النفس الاخير .

استدارت الجبال على الشاطئ الأيمن ، والآن أضاءت الشمس الغاربة قمتها فقط ، وكأنما تعرضها للجميع ، وهنا ، في مملكة السماء ، ظهرت فجأة عوامة هرمية حمراء لارشاد السفن. لا ، لم تكن مجرد عوامة ــ وكان ستيبا يعرف بالفعل ان العوامات الاعتيادية توضع على النهر ــ بل كانت هذه عوامة من نوع خاص مرتفعة على قنة الجبل ، واقفة أعلى من أعلى شجرة ، أعلى من السطوح الخشبية في القرية ، أعلى حتى من أعلى قمة مقفرة جبارة . والانسان الذي وضع له مثل هذا النصب كان في اغلب الظن غير اعتيادي ايضاً . وبدا لستيبا وكأنما رآه امام عينيه ، رجلا دفع بيديه الارماث في النهر ، وحمل الحمولات ، وقاد الصنادل الثقيلة ؛ والآن يقف فوق النهر ، بنفسه ، كالجبل ، جباراً وعتيقاً ، يسلم على المركب العابر ، مثلما يسلم على اخ صغير .

ــ نعم ــ أكد الربان بعد ان صمت قليلا ــ بالطبع... قام بواجبه حتى النفس الاخير .

واخرج الربان علبة سيكائر اليوشكا ، وفضها بشكل آلي ، واشعل سيكارة . وظل ستيبا ينظر الى قمة الجبل ، ونظر الربان الى قمة الجبل ــ الى تلك العوامة الصغيرة الحمراء التي لا تكاد تبين ، والمتوقدة بجمرة حية . ومرة اخرى حدث تغير غريب في التعبير المرتسم على وجه الربان : صار الوجه الجهم المغطى بالشعر فخوراً الآن ومهيباً ، وفهم اليوشكا فجأة ، وبشكل لم يتوقعه هو نفسه ، مصدر هذا التعبير ... كان الربان من ذلك العالم الراشد الكبير حقاً الذي عاش فيه اناس من مثل ايفان سيرغييفيتش غروزني ، حيث كان يجري عمل صعب راشد ، وحيث كان الجميع يفكرون ويقلقون من شيء لا يشبه على الاطلاق ما فكر به اليوشكا وقلق. والآن راودته الرغبة لسبب ما ، وهو الذي تذكر نظرة الربان الازدرائية ، وتأذى من تلك النظرة ومن حكاية السيكائر ، في ان ينظر الربان اليه ثانية بادانة ــ وليكن بنفس الازدراء ، والغيظ ، وحتى النفور ... الا ان الربان لم يلاحظه مطلقاً .
وطاف على النهر صفير المركب الأجش المزكوم ،

ووقف الربان على بعد خطوتين من اليوشكا . وكان ، وهو على تلك المسافة ، بعيداً جداً كقمة الجبل تلك التي تلونها الشمس الغاربة .

« وليكن !.. — فكر اليوشكا مع نفسه غاضباً منها ، وفي الحال حوّل الاذى الى الآخرين كما كان في عادته . — ليكن ! مخلوق !.. » وتمثل الربان وهو يحك ظهره على قائمة الباب ، وتذكر وجهه الراضي والبسيط حينذاك ، ثم أخذ يفكر بان امامه ما يزال طريق طويل ، وبانه ، اليوشكا ، يستطيع ان يسير في هذا الطريق كما يشاء ، ويستخف بجميع الربابنة في الحقيقة ...

خرج من القمرة الملاح الشاب وقد فرغ من عمله ، وغمز لاليوشكا ، فأجابه اليوشكا بغمزة ، وسرت الفرحة في كليهما . كان الملاح الشاب يبدو في مثل سن اليوشكا تقريباً ، ولكنه ، بالطبع ، كان يدخن سيكائر « لايكا » . وكان يرتدي طاقية سوداء من عهد آدم لها ظليلة من اسطوانة غراموفون ، وفانيلة بحرية من الجوخ . دخن سيكارة ، واخرج من جيبه مرآة مدورة ونظر الى نفسه . وقال :

— حسناً . الخفارة على ما يرام ، والجماعة نائمة . والارض بدت في البعيد .

ـ أنحن نسير حسب الجدول ؟ ـ سأل اليوشكا ، لمجرد الدخول في حديث ، ولكي يقدم له البحار سيكارة .

قال البحار :

ـ حسب الجدول . في الليل نرسو ، وفي النهار نسير . كل ذلك حسب الجدول . اذا لا نتأخر في بيجيتسي سنصل الى الميناء في الساعة الثالثة والعشرين صفر صفر .

كان هذا الملاح الشاب يتحدث بمرح شديد ، وبصوت عال متلاعب ، ولكن خيل لاليوشكا فجأة ان الملاح يحرك شفتيه بلا صوت. الا كلمة واحدة ترددت ، ورنت في الصمت . فسأل :

ـ ماذا تعني ببيجيتسي ؟ اية بيجيتسي ؟

ـ يوجد على النهر بيجيتسي واحدة . والمياه الضحلة الوحيدة هناك فقط . ألم تسمع ؟

ـ اها! .. سمعت ... ـ قال اليوشكا ، ولكي لا يلاحظ الملاح شيئاً ابتعد الى ناحية . وتوقفت الافكار في ذهن اليوشكا مختلطة غير واضحة ، الا ان الرعب المقيت الراعص انتقل من الصدر الى الحلقوم ... المركب ذاهب الى بيجيتسي . وكان اليوشكا قد سافر الى هناك مع

ابيه . انها تبعد عن الحاضرة بمائة واربعين كيلومتراً . ولكنها لا تقع في الطريق الى المدينة ، بل في الاتجاه المعاكس . بيجيتسي في الناحية المقابلة تماماً ، واليوشكا وستيبا يسافران طوال اليوم ليس الى المدينة ، بل يبتعدان عنها !

كان من المقرر ان تلتقي الام بهما على الرصيف في النهار . فقد أرسلت البرقية فعلاً ، وستأتي الام دون ان يخامرها شك . فهي لا تعرف ان الاب لم يستطع ان يصحبهما ، وهي لا تعرف انهما يسافران في الجهة المعاكسة ، وراء بيجيتسي ، بلا طعام وبلا اي فلس في الجيب ....

— ألست والصبي مسافرين الى بيجيتسي في الواقع؟ — سأل الملاح ونظر ثانية في المرآة ، وعدّل طاقيته .

— الى بيجيتسي ... — قال اليوشكا — الا انني لم اتصور اننا سنصل بهذه السرعة .

٢

بالقرب من بيجيتسي ازداد عرض النهر ، وسكن تماماً ، وظهرت في وسطه جزيرات نما عليها الصفصاف .

وفي الوقت ذاته أصبحت اعمدة الاشارات والصواري أكثر . كانت تقف على الشاطئين زاهية انيقة صارخة علناً بلونها الساطع . والآن لم يعد الربان يبتعد عن القمرة ، وسار المركب ببطء ، واحياناً يراوح في مكانه تماماً .

وخلال ذلك لاح مرفأ بيجيتسي في البعيد على الشاطئ الأيسر — مرسى حديث البناء يصفرّ اصفرار الزبدة ، وعنابر طويلة ، وظليلات ، واكوام من الكتل الخشبية قرب الماء ذاته . « اليوشكا ، ألا تعرف المكان الضحل هذا ؟ » — سأل ستيبا وأمسك اليوشكا من يده . « لا اعرف . ابتعد ... » — قال اليوشكا غاضباً مفكراً بشيء آخر ، وفي تلك اللحظة صرخ المركب صرخة قصيرة ، وفي الاسفل ، عند المحرك ، تحشرج شيء ، ورنّ ، وركض الملاح الشاب الى المقدمة يحمل عموداً طويلاً ، وأطل الربان من القمرة ، ونظر الى الخلف ، الى الصندلين . والتفت اليوشكا ايضاً ، ورأى المركب ينحشر بين لسانين رمليين . كان هذان اللسانان يمتدان في النهر من شمال ويمين مثل كومتين طويلتين مضلعتين — وفي الممر الضيق المتبقى لمعت وشعت صفحة ماء متموجة بسطوع غير طبيعي.

مرَّ الصندل الاول المحمل بالقرميد بين الشاتين بشكل موفق ، لم يصطدم مرة ، ولم يتعثر ، وكان الصندل الثاني ، كما بدا ، يتحرك وراء الاول بالضبط ، ولكن رجة تحدث فجأة ، ـ وصرَّ الحبل السلكي في قوس المركب ، وهدأ الضجيج في الاسفل ، وتوقف الشاطئان المتحركان . وقال الربان وهو في القمرة : « ارتطمنا في النهاية ... »

ركض الملاح الشاب ثانية يحمل عموده خالعاً فانيلته في سيره . وصاح :

ـ يا كورني ايفانوفيتش ! سأفحص الآن !

كان الربان خارج القمرة الآن ، وأخذ يخلع ملابسه ايضاً ـ نزع قميصه على مهل ، وخلع حذاءه الطويل من الجلد الاصطناعي وفك ربطتي الساقين . وقال :

ـ ماذا تفحص هناك. ارتطمنا بالجانب وسندفع .

واستدار الربان ، ورأى اليوشكا ظهره ، وذراعه اليسرى . كانت في الظهر ندبتان عميقتان تمتدان من الكتف الى الخاصرة . وعلى الذراع ، فوق المرفق قليلا ، لاحت بقع غريبة مسودة ... لا ، لم تكن بقعاً،

بل كانت ارقاما ، لم تكن مكتوبه ، بل ، كما يبدو ، مكوية بشيء ما ، ولكنها واضحة بشكل كاف ، ومن الممكن قراءتها ، في الغالب ، الى آخرها ، لو لم يكن من الفظاظة والبلاهة والرهبة جداً وجودها على ذراع انسان حية متحركة ... رآها اليوشكا خطفاً ، والتفت في الحال وكأنما صفع على وجهه ، الا ان هذه الارقام التي رؤيت خطفاً ، لم تختف بل ظلت امام عينيه واضحة سوداء .

وفيما بعد ، حين نزل اليوشكا وستيبا الى الشاطئ في بيجيتسي ، وحين عزما على المبيت هنا ، وجلسا على كومة دريس ، عند الطريق الخالي الابيض في الظلمة ، سأل ستيبا من اين جاءت هاتان الندبتان في ظهر الربان ، ثم سأل ، ما هي الحرب .

وكان اليوشكا قد قرأ في حياته عدداً معتبراً من الكتب عن الحرب ، واحب مشاهدة الافلام الحربية ، واستطاع ان يكوّن فكرة خاصة به عن الحرب (وبالطبع فكرة بطولية رفيعة طائشة فقط ، مثل جميع ابناء عمره الذين لم يروا الحرب بعيونهم) ، لم يستطع اليوشكا هذا ان يجيب اخاه . والاصح انه اجاب ، ولكن بشكل آخر :

الحرب هي حين يهجم الاعداء ، وحين يُقتل الناس ، ويؤسرون ، ويكوون في اجسادهم مثل هذه العلامات ...

استمع ستيبا الى هذه الكلمات ، وفكر قليلا ، ثم قال في حيرة :

– كيف يمكنهم ان يتعاركوا ، هم كبار !

وفهم اليوشكا اخاه ، ولم يضحك منه.

توقف المركب « غروزني » في بيجيتسي عدة دقائق فقط . تحدث الربان مع مأمورة السير على المرفأ ، وحمل على مركبه فريقاً من معوّمي الاخشاب ، واقلع المركب .

لم يودعه اليوشكا وستيبا . وقف اليوشكا في ظل كومة من الاخشاب ممسكاً بيد اخيه ، وانتظر حتى يكون من الممكن الذهاب الى مأمورة السير .

كانت تعمل في مأمورية السير على مرفأ بيجيتسي فتاة في نحو السابعة عشر من عمرها . لو لا سترتها الرسمية ، ومحفظتها المصنوعة من الجلد الاصطناعي لكان من الممكن ان تحسبها تلميذة بمدرسة . عندما كانت تتحدث مع الربان كانت تتصرف رسمياً

وبجفاف ، وتنظر فيما حولها حتى في شيء من الارتياب . ولكن ما ان ابتعد الربان حتى حل الملاح الشاب محله . وبطرفة عين اختفت الفتاة مأمورة السير ، وبقيت على المرفأ الفتاة تلميذة المدرسة المحمرة الصبية للغاية ، وكأنها بلا سترة رسمية ، وبلا محفظة ... كانت مسرورة بلقائها مع الملاح الشاب ، ولم تخف ذلك ، وضحكت من كلماته ، وضحكت لمجرد الضحك ، حين نظر اليها بود كسول . وغادر المركب صاعداً مجرى النهر ، وظلت الفتاة وقتاً طويلا تشيع المركب بنظرها وتمعن النظر في الانوار المضاءة ، والامواج الآخذة بالسكون والمخططة بالمازوت ، والمرقطة بالجذامات . وعادت الفتاة الى غرفة الخفارة مرة اخرى بنفس الابتسامة ، التي بدت وكأنها مطبوعة على وجهها مسورة اياها عما حولها .

سأل اليوشكا متى ستكون الرحلة القادمة الى المدينة . فأجابت الفتاة من خلال ابتسامتها :

ـ لن تكون رحلات الى المدينة في الوقت الحاضر بسبب تعويم الخشب . سيعود المركب «غروزني» بعد ان ينهي رحلته ، ولكن غير معروف متى .

من المشكوك فيه ان تكون الفتاة قد عرفت من الذي يسألها. لو تنظرون الآن بعينيها لرأيتم ان اليوشكا ، وهو نفسه لا يخمن ذلك ، قد انقلب فجأة الى شبيه بالملاح الشاب . وليس اليوشكا وحده بل كان المركب المبتعد شبيهاً بالبحار الشاب ، والعنبر الطويل الذي علقت عليه لافتة « ممنوع التدخين » كان شبيهاً بالملاح الشاب ، واكوام الكتل الخشبية ، وغرفة الخفارة ، وتوصيلة الاخشاب ، واشجار البتولا على المنحدر ، والاحراش ، والسحب ، والقمر الطالع ، كل ذلك كان شبيهاً بالملاح الشاب . هذا ما رأته الفتاة . اغلب الظن ان مدير المرفأ وحده ظل في عينيها مدير المرفأ ، ومن يدري ؟ ربما هو ايضاً عاد الى شبابه قليلا . الا ان مدير المرفأ لم يكن في عمله ، ويعني ذلك ، لم يكن الآن في العالم احد غير الملاح الشاب . ومرت الفتاة باليوشكا وستيبا دون ان تلاحظهما .

جلسا على كتلة خشب رطبة لها قشرة ناعمة . وسأل ستيبا : « لماذا نزلنا ؟ الى اين نذهب ؟ » غير ان اليوشكا صمت ، الا يده وحدها ، الضاغطة على راحة ستيبا ، فقد ارتجفت . كان اليوشكا في تلك اللحظة يفكر

ما العمل ؟ كانت الرهبة تتملكه ، ولكن ليس بالصورة التي تملكته وهو في المركب ، حين ارتعب لاول مرة . كان ذلك الرعب لاكزاً مستنفداً للصبر ، وقد دفع الى ان يعمل ، بينما حل الآن رعب متعب يائس تزول معه الرغبة في الحركة. ولم يكن بوسع اليوشكا ان يحدث اخاه بما حصل ، نعم ، وفي اغلب الظن ، لا يوجد الآن شخص واحد يستطيع اليوشكا ان يحدثه عن افكاره بشكل صادق . ومع ذلك ، فقد تحدث مع نفسه ؛ شخصان تحدثا الآن في داخله : الاول ذلك الفتى السابق الواثق الجريء الذي يملك كلمة مرور احتياطاً ، ويأمل في نجاح مستمر ، وبشكل عام اليوشكا الكبير ، والثاني هو اليوشكا الآن المذعور اليائس ، اليوشكا الصغير .

سأل اليوشكا الكبير :

« لماذا ، ايها الاخرق ، لم تتقدم من الربان لتطلب مساعدته ؟ »

« لم ارد ان يضحك مني ... — اجاب اليوشكا الصغير— عند ذاك كنت ساضطر الى الحديث عن الفلوس والتذاكر . وسيعرف ابي وامي ... »

«هراء! كان في وسعك على اية حال ان تكذب، ان تلفق حكاية طويلة! اذن لكان ذلك عذراً للضحك فيما بعد!»

«لم ارد ان اكذب عليه. لا اعرف لاي سبب. ما كان بوسعي ذلك. اشعر بالعيب والخجل ...»

«عيب عليك من قبل ايضاً. تصور، مصيبة كبيرة! العيب لا يجرح العين ... يمكن ان تنساه، وتشعر براحة جيدة».

«لا اعرف ... — اجاب اليوشكا الصغير — ما كان بوسعي ان اكذب على الربان. من الافضل ان تقول لنا ماذا نفعل الآن؟ انصحنا!»

«واية نصائح عندي ... انا جوعان!» — قال اليوشكا الكبير وبكى، وانقلب فجأة الى صغير ايضاً.

رأى ستيبا صبياً من بعيد حين كان هذا يصعد كومة الكتل الخشبية، وكأنه يرتقي درجاً. ولم يكن مفهوماً من اين نبع هذا الصبي. فلربما خرج من الماء رأساً، مثلما يخرج الناس احيانا بسكون وصمت من الضباب الليلي السابح في المنخفض؟

كان الصبي يرتدي قميصاً رثاً ، وبنطلوناً رثاً ، وحذاءاً رياضيا مطاطياً . قال الصبي :

ــ اعطني كوبيكين ، وسارقص على بطني !

ــ اذهب يا ولد ... ــ هدد اليوشكا متجهماً .

ــ هل عندك شيء يؤكل ؟

ــ نحن انفسنا جياع .

ــ من اين انتما ؟

ــ من كوزمين . مسافران الى المدينة .

ــ من اي كوزمين هذا ؟

يبدو ان الصبي لا يعرف اسم كوزمين ! وكان ستيبا حتى هذه اللحظة واثقاً من ان الجميع يعرفون هذا الاسم : كان الاخ الكبير ما ان ينطق بالاسم حتى ينقلب الناس الغرباء فجأة الى معارف . بينما الصبي لا يعرف ! اغلب الظن انه خرج من الماء حقاً ... حتى اليوشكا لم يجد ما يرده به . سأل اليوشكا :

ــ وانت ممن ؟

ــ من لا احد ــ اجاب الصبي فخوراً .

ــ كيف من لا احد ؟ !

ـ انا غجري ـ قال الصبي ـ انا مستقل بذاتي . أرحل . ـ وتمخط ونظر الى اليوشكا وستيبا بترفع .

ـ الى اين ترحل ؟ ـ سأل اليوشكا غير فاهم .

ـ على العموم ، ارحل اليوم من دفوريكي . وغداً سارحل الى مكان ابعد .

ـ ولماذا ؟ ـ قال ستيبا مبتهجاً .

ـ كيف ، ـ قال الصبي ـ ألا تفهم ؟ الترحال عظيم ! عظيم ! اذا لا ارحل يأخذونني الى المدرسة بعد غد . انت ، يا طويل ، تتعلم ؟

ـ اها .

ـ وانا لا ! ـ قال الصبي بافتخار . ـ انا مستقل بنفسي . ارتحل سنتين ثم اقدم الامتحان ... هكذا ... على العموم ... رأساً . والا فساتضايق . لا استطيع ان استقر في مكان واحد ، روحي تحب الحرية ... هل تريدان ان اكشف عن طالعكما . اخبر بكل شيء : ماذا حصل ، وماذا يحصل ، وماذا سيحصل ، واي نصيب مكتوب لكما !

ـ هيا ! ـ قال اليوشكا ، بينما فتح ستيبا عينيه وحتى كف عن التنفس ، فقد كان ذلك ممتعاً جداً .

ــ ولكن لا ، ــ قال الصبي فجأة . ــ يجب ان تدهن يدي .

ــ ماذا ؟

ــ يجب الدفع . لا يجوز كشف الطالع مجاناً . غير لائق !

قال اليوشكا :

ــ كلام جد ، ليس عندنا شيء . علينا ان نذهب الى المدينة ، ولكن لا يوجد مركب ولا زورق بخاري . وضع احمق . أتعرف كيف يمكن الوصول الى المدينة ؟

ــ لا تهمني المدينة ، ــ قال الصبي . ــ نحن الغجر نتجنب المدن كلها .

ــ واين يمكن المبيت هنا ؟

ــ ها ! ــ قال الصبي . ــ وجدت ما تفكر فيه . انا انام على الارض ، واتغطى بالريح . على العموم يا اولاد ، يوجد دريس عند الطريق . لنذهب ، نشعل ناراً ونتدفأ !

ــ سواح يستريحون في المبيت ، ــ قال اليوشكا في مرارة ــ رومانتيكي !.. ولكن لنذهب ، ما العمل ... على الاقل ما اسمك ؟

ـ اسمي ؟.. احم ... لا شيء . لنا اسماؤنا الخاصة ـ اجاب الصبي . ـ لا تستطيع تلفظها .

اشعلوا ناراً على مسافة غير بعيدة من كومات التبن ، واستلقوا قرب النار الدافئة الداجنة بحيث صار البقاء مريحاً في الحال في هذا الحقل الليلي الضبابي الآخذ بالبرود .

كان الى جانبهم تقريباً طريق ابيض خال ؛ كان شريطه يلمع قليلا اما من قطرات الندى او الميكا في الزلط المهشم . ووراء الطريق لاحت الاحراش متكاثفة سوداء، والى مسافة ابعد بدأت غابة بتولا بدت زرقاء بنية . وكل ذلك قد أضيء بضوء القمر الاصفر الداخن الذي طلع في السماء . ولم يلق ضوء القمر ظلالا . الا ان جميع الاشياء ـ اكوام التبن ، والاشجار ، وكل عشبة في الارض ـ كانت ذات هالة فوسفورية لامعة ، مثلما يحدث احياناً قبيل عاصفة رعدية .

وغفا الغجري الصغير سريعاً ، وسط الحديث مباشرة دون ان يتم جملته الاخيرة . وكان يبتسم وهو نائم ويرفس بحذائه الرياضي ، في غالب الظن انه كان يتابع ترحاله . اما اليوشكا نفسه فلم يتعود على النوم على الارض متغطياً

بالريح ، فلم يقبل النوم عليه . وقضى ستيبا وقتاً طويلا ايضاً وهو يقظان : تقلب على التبن ، وهمس بشيء ، ثم سأل ، ما سبب الندوب في جسم ربان « غروزني » وما هي الحرب . واجاب اليوشكا باقتضاب . وفي الجوهر كان يفكر بذلك ايضاً بالرغم من انه تذكر الآن ، كما يبدو شيئاً آخر ، ذلك السبب الذي أبقى الاب في الحاضرة .

لم يستطع الاب مصاحبتهما في سفرهما الى المدينة لان لغماً نسف جرارة في الغابة صباح اليوم . كانوا في الصباح كعادتهم ينقلون كتلا خشبية طويلة لها رؤوس غير مشذبة . وحمل التراكتور على ظهره هذه الكتل وجرها الى شاطئ النهر . وكان ذلك عملا مألوفاً قديماً ، ولم يفترض احد وجود لغم مختف في الارض في بقعة الغابة التي سار فيها الخطابون كثيرا ، ومزّقتها جنازير التراكتورات . ولكنه كان هناك صدئاً بجسمه المهزول متفسخاً ، ولكنه محتفظ على اية حال بقوته التفجيرية . وقد انتظر في الارض طويلا ، وانقضت السنون ، ونمت النباتات في فرجة الغابة التي كانت من قبل حقل الغام للعدو ،

وارتفعت أشجار ، وغطته بظلها . وصادف ان اللغم انتظر ساعته . وكان سيان عنده مَنْ داس على المفجر ، دبابة او تراكتور او سيارة لوري ، والى مَنْ تعود الآن هذه الدبابات او التراكتورات او السيارات . كان سيان عنده ، وقد انتظر ساعته على اية حال وفي الصباح دوى انفجار في فرجة الغابة ، واحترق التراكتور الناقل ، وجرح سائقه . هذا هو الحادث المؤسف الذي أبقى الاب في الحاضرة .

حين عرف اليوشكا بذلك فرح ، والحق يقال . ولم يهز اليوشكا الانفجار ، ولا السائق ولا كل تلك الجلبة حول هذا الحادث ، ولم يؤثر فيه كل ذلك البتة . بالطبع كان يخاف لو ان اللغم انفجر بالقرب منه ، وبالطبع كان سيأسف ويتعذب لو انه رأى سائق التراكتور الجريح ، ولكن لما كان هذا كله قد حدث بغيابه فقد اعتبره شيئاً بعيداً وغير واقعي . وكان الشيء الرئيسي عنده هو ان اباه لن يوصلهما . ويمكن السفر بلا وصاية ، وكما تريد . وقد فكر اليوشكا بذلك فقط ، وفرح في سره .

وماذا كان حدث له اليوم لو انه يفكر الآن ،

وهو مستلق قرب النار في حقل ليلي ، تفكيراً مختلفاً تماماً عن هذا الانفجار ، ويتخيل بوضوح تام اللغم الصدئ المطمور في الارض، ويفكر بالقوة الشريرة العمياء الطائشة الكامنة فيه ، ويقلق على سائق التراكتور الجريح ، الرجل الغريب عليه ، يقلق مثلما كان سيقلق على ابيه او ستيبا ... وهو يفهم ، يفهم الى النهاية حيرة الاخ الصغير وهو يصيح :

— كيف يمكنهم ان يتعاركوا ، هم كبار !

في هذا العام ، صيفاً ، تعارك ستيبا لاول مرة في حياته . جرحه جاره الفتى فضرب ستيبا الفتى وقالوا لستيبا ان العراك امر سيئ ، فعلق في ذاكرته ان العراك امر سيئ .

والآن في الليل ، وهو مثار بكل ما رآه ، يسأل اخاه ما هي الحرب ، ويجيب الاخ ان الحرب هي حين يهجم الاعداء ، وحين يُقتل الناس ويؤسرون ويكون في اجسادهم علامات مخيفة ... ومن الممكن ان لا يصدق ذلك، ولكن الاخ الكبير يشرح له بجد ، يشرح بجد كبير .

عند ذلك يقول ستيبا بدهشة ، ويتكلم من انه لا يستطيع ان يفهم ويستوعب هذه الحياة الغريبة :
— كيف ، كيف يمكنهم ان يتعاركوا ، فهم كبار !

وفي حياة اليوشكا ايضاً لم تكن الا ترجيعات ، لم تكن الا ذكريات عن الحرب . فمثلا انه كان يتذكر ايام كان الاب ما يزال يلبس السترة العسكرية الخضراء المبطنة بالقطن (فيما بعد غطيت مقدمة السيارة بهذه السترة) ، وكان يتذكر البيوت المهدمة في المدينة (سراديب هذه البيوت كريهة الرائحة ، فهناك كان المارة يقضون حاجاتهم ، وهناك ، في الآجر المحطم ، والورق القذر كانت الفئران تمرق حتى في النهار) ، وكان يتذكر برد الشقة الذي استمر طويلا بعد الحرب (واليوشكا حتى الآن ينام في جوربيه تعوداً) . وشاهد انعكاس الحرب على الشاشة حين كان يشاهد الافلام الحربية، وقد اعجب بها اكثر مما اعجب بالاخرى ، وقرأ عن الحرب في الكتب ، ولكن ذلك كان أقل متعة . وسمع ايضاً عن وشمات الحروق ، وعن النجوم المنحوتة على الصدور ، وعن ظلائل المصابيح المصنوعة من الجلود الانسانية .

فالذين في عمره يفهمون كثيراً ، ويتفهمون الكثير ، الا ان الحرب ، على اية حال ، ظلت غير مفهومة لاليوشكا. احياناً تنقلب الى لعبة ، واحياناً الى مخاطرة جريئة ، واحياناً ذكريات كلدرة ، وفي اغلب الاحيان كان كل ما يخص الحرب ، سواء أكانت احاديث او برامج في الراديو او بلاغات في الجرائد ، لا يؤذي اليوشكا ، وكأنما في معزل عنه . ففي الامكان اغلاق الراديو ، والقاء الجريدة ، ونسيان الحديث . وفي عالمه الخاص لا يتغير شيء ... واليوم فقط ، لاول مرة بدت الحرب في ذاكرة اليوشكا غير اعتيادية ومخيفة ، وكأنما مسته فعلا . ولم يفهم من اين جاء ذلك ، الا انه عرف ان من المشكوك فيه نسيان هذا اليوم ، وجسم الربان المدور الكتفين ، والندبتين على ظهره ، والارقام المكوية ، التي كأنما كانت تتحرك على ذراعه، وصوت الاخ الصغير سائلا ما هي الحرب ...

حين يكبر ستيبا سيعرف ان على هذه الارض ، على هذه الاماكن التي يجري فيها نهر لوزا ، وتقع قرية دفوريكي ، وتنبسط مدينته ، ومدن اخرى مثلها ، في الازمنة الغابرة تلاطمت امواج البحر ، وضجت

غابات السرخس ، وخرجت العظايا الجبارة من الطين والوحل ، ثم حرثت الثلاجة الجبارة صلابة الارض ، لاعقة بلسانها البارد الصخور المحدَّبة ... وستيبا يعرف هذا ويصدق بكل شيء ، لان في الامكان التصديق بذلك ولان ذلك كان بالفعل .

ولكن حين ينمو ويعرف انه ليس قبل ملايين السنين ، بل قبل زمن وجيز جداً ما يزال عالقاً في ذاكرة جده وابيه ، اخترقت جحافل الغزاة المدربة المروضة على الاعمال العسكرية البلدان المجاورة ناهبة مبربرة ؛ حتى ان في الحرب العالمية الاولى لم تستخدم الرشاشات السريعة الطلقات والقنابل فحسب ، بل والغازات السامة ايضاً ؛ وفي الحرب العالمية الثانية أحرق الناس في مواقد بنيت خصيصاً لهذا الغرض ، ووئدوا في الارض احياء ؛ وفي نهاية الحرب أطلق أفظع وأبشع سلاح اخترعه عقل على الارض ، وفي اول تجربة له ، وبضربة واحدة دمرت مدينة هائلة لم يحدس اهلها شيئاً ، فاذا هم في فوهة البركان ، واختفوا ، وصاروا رماداً ، وهلكوا من اشعة قاسية غير منظورة ؛ وانه في اثر تلك التجربة بدأت تجارب اخرى ، وحُسّن السلاح ؛ والذين كانت

الحرب مربحة لهم وضرورية استمروا في التحضير لها ، والذين أرادوا ايقاف الحرب اضطروا الى تجميع السلاح للدفاع ، ــ فهو لا يصدق هذا .

ويعرضون على ستيبا الصور الفوتوغرافية ، ويقدمون له الكتب ليطالعها ، ويشرحون السبب في ذلك ؛ ويرى قبور القتلى ، والظلال المنحوسة على الاحجار المفخورة ــ ومع ذلك لا يصدق ان ذلك كان .

لانه سيكون من الصعب التصديق بذلك .

ــ اشرحوا لي ما هذا المعسكر ــ فجأة تردد صوت في الظلمة . وارتعش اليوشكا وستيبا والتفتا . كانت تقف على مقربة منهم امرأة بدينة شيباء تحمل محفظة ، وقد اضاء اللهب الاحمر اسفلها . وقد انعكست النار على عدستي نظارتها البارزتين ، على كل عدسة لسان راقص .

ــ يا انتون تيموفييفيتش ــ صاحت المرأة ــ تعال الى هنا .

ونبع من الظلمة شخص آخر ــ رجل عجوز يرتدي سترة من المشمع الخشن ، ويتأبط مقرعة .

ـ تصور اين اشعلوا النار ! بالقرب من التبن ، والالواح والكتل الخشبية . هل انتم مجانين ؟

ـ مسافرون ، على الاغلب ـ قال العجوز ـ من المرفأ .

ـ هل انتم وحدكم ؟ بلا كبار ؟ ـ سألت المرأة مصوبة الى اليوشكا نظارة لامعة .

ـ وحدنا ـ اجاب اليوشكا بتهيب ، ووقف وكأنه امام معلمة .

ـ لماذا ؟

لو كان اليوشكا في غير هذا الظرف لما فكر في اجابتها . ولو ألحت كثيراً لنطق بكلمة المرور لعلها تسعفه . ولكن اليوشكا اليوم ، بعد كل الحوادث ، بعد ما لقي من رعب ، وبعد هذا المبيت تحت سماء مكشوفة اجاب المرأة مطيعاً ، ولم يتردد لقب عائلته في الجواب . فلربما نسي ذكره في حيرته ، ولربما شك في ان يكون اللقب معروفاً للمرأة . وعلى اية حال وجدا انفسهما بعيدين عن الحاضرة ، وهنا يمكن ان لا يعرف الجميع اباهما ، فمثلا الغجري الصغير لا يعرف ... وشرح اليوشكا بصدق كيف ركبا في مركب غير المركب

المقصود ، وكيف خافا ونزلا في بيجيتسي دون ان يقولا شيئاً للربان . غير ان اليوشكا سكت فقط عن الفلوس والتذاكر .

ـ يعني انتما اخوان ـ سألت المرأة . ـ ومن هذا النائم ؟

ـ غجري ـ قال ستيبا في لهجة احترام ـ هو يرحل . وغداً سيرحل ابعد .

ـ هو الذي قدم نفسه لكما ؟

ـ نعم .

ـ يا انتون تيموفييفيتش ، الق نظرة ! ـ قالت المرأة ـ هذا الغجري يبدو معروفاً ، ها ؟

انحنى العجوز ، ومس الحذاء المطاطي بمقرعته :

ـ باشكا ابن المحاسب ؟

ـ بالطبع ، هو نفسه .

ـ يا للمتسكع ، الى اين هرب ! ـ قال العجوز في عجب ـ مرة اخرى يعيدها !

ـ باشكا ! ـ نادت المرأة بحدة .

فتح الغجري عينيه ، ثم أغمضهما بشدة . وجمد حذاءاه الابيضان المطوييان على مقربة من بدنه .

ـ باشكا !

ـ لماذا تضايقانني ؟ ـ قال الغجري بصوت رقيق، دون ان يفتح عينيه . ـ ماذا تريدان ؟

ـ ابوه يبحث عنه في كل القرية ، وامه تمزق شعرها عليه ! ـ قالت المرأة ذلك بغضب . ـ اما هو ، فأنظروا ...

قال الغجري :

ـ لا احد يمزق هناك ! انا حذرتهما من انني ساهرب على اية حال !

ـ يا قليل الادب ! كيف لا تستحي !..

ـ ليكن ذلك حياء لهما! ـ قال الغجري بحنق وقعد . ـ أكلا كل حياتي !

واهتزت نظارة المرأة لسبب ما ، ورفت عيناها . وقالت بصوت مقوق :

ـ انتون تيموفييفيتش ، خذهم جميعاً الى القرية . ليست المسافة بعيدة ، وسأصل مشياً . سلم الغجري الى بد امه ، اما هذان السائحان فخذهما الى بيتي . وغداً نفكر ماذا نعمل .

صاح باشكا مهدداً :

ـ لا اذهب على اية حال .

ـ امسكه بقوة ، يا انتون تيموفييفيتش . اما انت ، ايها الصبي ، فاذكر عنوانك . سأرسل برقية من المرفأ حتى لا يجن اهلكما ...

ذكر اليوشكا عنوان اهله في المدينة ، فانحنت المرأة على النار ، وكتبته على ورقة مخططة عليها ختم ، وانصرفت ، ولمعت نظارتها عند الانصراف .

ـ انهضوا، ايها الرحّالة ، ـ قال انتون تيموفييفيتش في غير رضى .

« قرررو... » ـ قرقر بطن الحصان ـ « قرررو ...». وقرقعت العجلات على احجار غير مرئية ، وطقطقت حوافر غير منظورة ، وقعقعت سترة المشمع على كتفي انتون تيموفييفيتش وكأنها من قصدير . وفي شريط الطريق الابيض لم يكن يرى الا رأس الحصان ذو الاذنين الفاحمتين الذي كان يهتز في توافق مع وقع الحوافر المنسق . كان يهتز ويهتز ...

كانت العربة التي أجلسهم فيها انتون تيموفييفيتش

غريبة لم ير اليوشكا مثلها من قبل : شد فوق عجلتين حوض عال من فروع الاشجار المشذبة يشبه السلة . ومن المحتمل ان العربة قد صنعت لتحمل اثنين ، ولكنه الآن حين حُشر فيها اربعة اشخاص كان الخوف مشروعاً ، فقد تجد نفسك منقلباً خارجها دون ان تدري . ومع ذلك فقد كان ركوبها لطيفاً وانت تعرف ان في انتظارك بيتاً مأهولاً ودفئاً ، ومبيتاً ...

— هذا بسببك يا قذر الانف ، — قال انتون تيموفييفيتش لباشكا — ذهبت الطبيبة الى المريض مشياً . اتعي ذلك ؟ وانا أقوم بسفرة زائدة .

— لم يطلب احد ! — لفظ باشكا بذلك .

— صار الهروب من البيت موضة لك ...

— على العموم لن اعيش بين النسوان !..

— لا تقل نسوان ... بل نساء . الجنس الضعيف .

— ها ! انت لا تعرف ما هذا الضعيف !

— مرة خرج الى مواقع البناء ... الى محطة براتسك الكهرمائية ... أليس كذلك ؟ مرة راق له الترحال ... — ووخز انتون تيموفييفيتش باشكا في جنبه ، وقرقعت سترة المشمع — انا اشعر من اين تهب الريح . انضم الغجر

الينا في الكولخوز ... ثمانية عشر شخصاً . وهو مصاب بموضة حديثة . لا يفهم ان الغجري اعاد تكوين نفسه اليوم ، واصبح مقيماً .

ـ ليس للغجر نسوان بقدر ما عندي ! ـ قال باشكا ذلك بصوت عال .

ـ انتظر وستعلمك النسوان ... اقصد النساء .

استمع اليوشكا الى هذه الاحاديث متبسماً ؛ وزال التوتر في داخل نفسه قليلا ، وهدأ ، وحلّ بعد الرعب والقلق شبه نسيان واهن . وكانت رائحة القار والروث وفروة خروف حامزة تفوح من الحصان ، وسترة المشمع التي يرتديها انتون تيموفييفيتش ، وكان الطريق الابيض يرتفع ثم يهبط ، والحوض المضفور يرسل صفيراً ، وتقرقع الحوافر في رتابة واتساق ، وتسير الاحراش الرطبة على جانبي الطريق ، ويطوف الضباب ، ويسوح القمر فوق الغابة نافذاً من خلال السحب الليفية النادرة ، ولا يترك العربة . الا احياناً ، وللحظات ، كان الذعر يعود الى اليوشكا مثل دفقة ريح باردة متسرباً من وراء الوعي ، غامضاً ، مزعزعاً ... كان يخيل اليه انه قد نسي اليوم ان يفعل شيئاً مهماً ضرورياً ، وانه يتأخر في

اللحاق بشيء ما... الا انه كان يتردد على مقربة منه صوت انتون تيموفييفيتش ، وترتج العربة ، ويهتز رأس ستيبا الجالس الى امامه ، دافعاً صدر اليوشكا دفعاً رقيقاً ، ويستولي عليه النسيان ثانية . تنفس نفساً عميقاً ، واعتدل على المقعد بوضع اروح ، ونظر بخلو بال الى الطريق اللامع وهو يجري بخفوت تحت العربة ، والى رأس الحصان ذي الاذنين المنتصبتين ينحني برتابة — اذن مشرعة الى الامام ، والاخرى الى الخلف ...
« قررررو ! » — قرقر بطن الحصان — « قررررو ! » . وسأل ستيبا ناعساً : « ماذا به ؟ » . « مَنْ ؟ » . « الحصان ...» أجاب انتون تيموفييفيتش : « يجري في داخله تفاعل . في الهرم يحدث في داخله ما يشبه الصواريخ ... » وأراد اليوشكا ان يضحك ، ولكنه نسي كلمات انتون تيموفييفيتش في الحال ، كأنما مرت به وذابت ...

تلوى الطريق على منحدر تل ، وتتابعت الالتواءات البيضاء واحدة بعد الاخرى ؛ واستدار التل ، ولسبب ما راح رأس الحصان يهتز على خلفية من النجوم ، وشحب القمر كلياً ، وصار في الاسفل فجأة قرب الطريق ، — « اغلب الظن انها بحيرة ... » — فكر اليوشكا ،

وظهرت الى اليمين بيوت واطئة عليها اعمدة موصلات الراديو الهوائية ، ونبحت كلاب . «لا اذهب على اية حال ! » — صرخ صوت باشكا عند اذنه ، وأفاق على نفسه ونفض النعاس عنه، وفهم اليوشكا انهم في دفوريكي.

توقفت العربة في وسط القرية . كان باب بيت مجاور مفتوحاً ؛ وأضاء نور مائل متلوٍ في الهواء الرطب درجات المدخل ، وجانب الطريق ، واحواض زهور الداليا المرتخية الذابلة في الحديقة الامامية . ورفرف النور رأساً ، وخرج اناس امام مدخل البيت . وصدر صوت نسائي :

— لا بأس، سأنشغل معك في الصباح ! يا لوبكا ، صبي له الماء ليغتسل . انه مغطى بالوحل .

— لا اريد ، لا تضايقوني !.. — صاح باشكا .

— يا فيرا ، ساعدي لوبكا . وانت يا داريا اجلبي حليباً من السرداب ، وقطعي الخبز . يا انتون تيموفييفيتش اترك هذين الولدين معي ايضاً . لا حاجة لاقلاق الطبيبة — اما نحن فالضوضاء شاملة عندنا ...

تحرك ظل هائل الى العربة . ولاح فوق اليوشكا وجه نسائي ممتلئ عريض .

— ولدان ، احدهما صغير جداً !

أمسكت المرأة بيد ستيبا الناعس ، بينما اطبقت الاخرى بقوة على مرفق اليوشكا ، وقادتهما الى مدخل البيت .

٣

استيقظ ستيبا ورأى فوقه سقفاً اصفر ذا روافد خشبية تماوجت عليه رقرقة شمسية مثل اكورديون يعزف عليه في عجالة . « توك-توك ! » — كانت القطرات المتلألئة تهبط من السقف — « توك-توك ! » ورددت الخنافس المائية فرحة : « نعيش ، نعيش ! » متزلقة بين المويجات الصغيرة . وصاح ديك وراء الجدار : « قوقو قيقو ! » رفع ستيبا جسمه ونظر .

وتبين انه كان في غرفة ريفية . ولم تكن تلك قطرات شمسية تتساقط ، بل ساعة حائطية مثل بيت الزرزور . ولم تكن هناك خنافس مائية تنزلق على مويجات بل ذباب خريفي كسول يئز على زجاج النافذة . حزمة ضوء شمسي ساقط على مرآة الصوان المربعة ، والاشعة المنعكسة كانت تركض متوثبة على السقف ، وتنزلق على موقد روسي كبير ، حار جداً في اغلب الظن لان

الاشعة كانت تتلاشى في طرفة عين . وكأنها كانت تتبخر . وقال صوت وراء الباب :

ـ الفطور يا اميرات !

وفي الحال تذكر ستيبا اين هو . ستدخل الغرفة الآن الملكة ـ تلك الملكة التي سقت ستيبا حليباً يوم امس ، واضجعته لينام . والبنات يسمين الملكة « ماما دوسيا » ، وزوجها محاسب الكولخوز ، ولكن هذا لا يعني شيئاً . ما ان تنظر اليها حتى يتوضح لك في الحال انها ملكة .

وها هي تدخل الباب . فَمَنْ يمكن ان تكون له ايضاً مثل هذه القامة ، وهذا الرأس المتوج بشعر لامع ، وهذه المشية المهيبة ؟ ومَنْ غير الملكة تتحدث بهذا الصوت الآمر ؟ ومَنْ يلقي مثل هذه النظرات التهديدية ؟ تنادي قائلة :

ـ ناديجدا ، لوبكا ، داريا ، فيرا ، كاترينا ، تونيا ! ماشنكا ! لماذا لا تجئن يا مخطوفات !..

وتأتي الاميرات الى الغرفة . بالامس لم يستطع ستيبا ان يعدهن ، بل رأى فقط انهن جميعاً فاتنات طيبات رقيقات .

كانت الاميرة ناديجدا اولى من ظهرت منهن ، وهي فتاة راشدة وكبراهن تكاد تكون ملكة نفسها .

ثم دخلت الاميرة ليوبا ، وهي ايضاً كبيرة السن في الغالب ، عمرها حوالى خمسة عشر عاماً .

ثم دخلت الثالثة الاميرة فيرا ، وهي في عمر اليوشكا .

ثم الاميرتان الرابعة والخامسة كاتيا وداريا دخلتا سوية ، وهما توأمان ، ولربما تتعلمان في صف واحد .

والاميرة السادسة تونيا تلميذة الصف الاول ، تأتي باكية ، فقد لحقوا ان يعاقبوها ويضعوها واقفة في ركن الحائط .

اما الاميرة السابعة ، ماشنكا ، فهي اعقلهن ، واطيبهن ، واجملهن ، تنزل من الموقد وتقول : « باشكا لم ينظف اسنانه مرة اخرى . انا أعرف !.. »

للملكة سبع بنات ، والثامن باشكا الابن . والزوج ، محاسب الكولخوز ، لا يصلح كثيراً ليكون ملكاً . فهو اصلع ، ويلبس نظارة انف ، ورجلاه مصابتان بالروماتزم ومحشورتان في جوربين صوفيين الى حد الركبتين . ولكن من المعروف ان من النادر ان تجد بين الملوك من له مظهر محترم .

قالت له الملكة :

ـ اترك قراءة الجريدة ! اذهب يا باشكا ونظف اسنانك .

فيصيح باشكا : ـ ولكني نظفتها !..

ـ يكذب ـ تقول الاميرة داريا ذلك ـ بلل الفرشاة فقط ، ونثر المسحوق من العلبة .

فتصدر الملكة حكمها :

ـ لا أسمح له بالذهاب الى السينما اليوم . ليكن على علم .

ـ وماذا فعلت ؟ !

ـ لا تتدلل على الفارغ . اذهب ونظف اسنانك . وانت يا ليوبا راقبيه .

وتجلس الملكة اليوشكا على يسارها ، وستيبا على يمينها . وتقرب الاميرات منهن صحوناً ، وتأخذ كل واحدة ملعقة من تل من الملاعق من الالومنيوم . وعلى المائدة رغيف خبز ، وسلطانيات فيها حليب مغلي ، وقدر مسخم باخر ذو حافة مثلومة . وتضايق باشكا قائلا :

ـ بطاطس ايضاً !

ـ في افريقيا تساقط الثلج على الساحل الغربي ...

ـ قال الملك في تهيب ـ حتى ان النقل في السيارات قد توقف . اما في أمريكا فقد أصاب الصقيع الحمضيات .

ولا تتأثر الملكة بهذه الاخبار . عندها ما يكفيها من المشاغل في مملكتها وتقول :

ـ اليوم سأتأخر . اجتماع في المزرعة . اعدي يا ليوبا العشاء . اما كاتيا وداريا فتطعمان الخنزير والدجاج . وانت يا باشكا املأ البرميل بالماء . وفيرا تحلب البقرة .

ـ لا اعمل ! ـ يصيح باشكا وفمه مملوء .

ـ ستعمل ، ليوبكا ، راقبيه .

ـ هل انا اسوأ الجميع ؟ في جلب الماء ، في حمل الحطب باشكا دائماً ! اما الثياب فتشترونها للنسوان فقط ! ألم تشتروا لفيرا فستاناً جديداً ؟ ألم تشتروا لكاتيا ولداشكا ؟ واي شيء لي ؟ ليس عندي غير بنطلون ممزق !

ـ لا تتسلق الاسيجة ! ـ تقول الاميرة داريا ذلك ناصحة . فيهدد باشكا :

ـ لا اذهب الى المدرسة !

ـ تذهب طائعاً ... ـ تقول الملكة وتثبت بصرها على الاميرة الكبرى وتسأل: يا ناديجدا ، هل سيأتي ولي عهدك اليوم ؟

ويظهر ان للبنت الكبرى ولي عهد منذ الآن . وتخجل ناديجدا ، وتطبق رأسها الاشم على صدرها وتهمس :
ـ سيأتي .
ـ سأعهد اليه اولا بان يوصل هذين الاخوين الى اوزركي ، ويجلسهما في الباص ـ وتشير الملكة برأسها الى اليوشكا وستيبا ـ ثانياً ، ان يوصل فيرا الى المخزن لتشتري شيئاً .
ـ ومع مَنْ نترك ماشنكا ؟
ـ ستذهب هي ايضاً .
ـ لطيف ، يا ماما دوسيا ـ تقول الاميرة ماشنكا اعقل الفتيات ، واطيبهن واجملهن طائعة ـ وتضيف : ـ وباشكا خطف قطعتين من السكر .

لا ، بدأ هذا اليوم بداية حسنة ؛ كان لاليوشكا مزاج لطيف منذ الصباح . ايقظه باشكا ، ذلك الغجري المفضوح ، وهمس : « لنذهب ونسبح في البحيرة !.. قبل ان تستيقظ النسوان ! » ووافق اليوشكا ، ونعم ما فعل .

كان على البحيرة ضباب كثيف (ليس على الماء تماماً ، بل فوقه قليلا ؛ بحيث يمكنك ، اذا قرفصت ،

ان ترى الشاطئ المقابل في الشق الضيق) وتبين ان الماء بارد الى حد القشعريرة . ولكن لم يكن من الممكن النكوص امام الصديق الجديد ! قلّص اليوشكا عينيه والقى نفسه في الماء ، وصرخ كالمسلوق وخبط بيديه ، وحين طلع على الشاطئ ، زالت الرجفة بلمحة عين ، بل وتظاهر بالحر . وكم اصبح التنفس لطيفاً بعد السباحة ، وكم تدفق الدم فيه دفقات وتوثب ، وتوترت عضلاته ! واراد ان يركض ، وينطلق على العشب القصديري المبخر من الندى حتى تصفر الريح في الاذنين ، وتخدش العينين ...

ثم وصلت الى البحيرة فيرا اخت باشكا . في المساء لم يرها اليوشكا ، بل ربما مجرد انه لم يدقق النظر . لا ، على العموم ، هو الآن ايضاً لم ينظر كما ينبغي ، كل هيئتها ظلت ضبابية غير واضحة ؛ ولم يكن بوسع اليوشكا ان يجيب اذا سئل ما لون عينيها ، شعرها ، وما طول قامتها ... كل ذلك كان غير مهم كلياً . حين اقبلت فيرا أحس اليوشكا في الحال بتغيّر فيما حول ، تغيّر شيء ما لا يدرك ، وتغيّر شيء فيه ايضاً ، في داخل نفسه ، وكأنما كبر . ثم ، فيما بعد ، احس اليوشكا طوال الوقت بوجودها . سبحت هي في ناحية ، وسارت

الى البيت وراء اليوشكا ، بل ولم يسمع بوقع خطاها ، وخفق قلبه في صدره : « هي هنا ... هي هنا !.. » لم يكن بحاجة الى ان ينظر اليها ، وكان يفرحه مجرد التفكير بان في وسعه ، حين يريد ، ان يلتفت وينظر اليها ؛ ولم يستعجل في التحدث معها مسروراً بان في وسعه التحدث معها ... ولم يفكر في انه سيسافر في ساعة من الساعات ، ولن يلتقي بها بعد ذلك ، وانه لن يلحق بالتعارف معها بشكل جيد ؛ لم يكن هناك حزن ولا أسف ، بل كان هناك سرور لم يكن في وسعه ان يفسره لنفسه .

لم يكن اليوشكا يعرف بعد بان هذا الصباح سيعلق في ذاكرته في أدق تفاصيله : الضباب الشبيه بفروة خروف صفراء ممشطة ، ورائحة العشب المبلل المكتسب لوناً بنياً ، وخرير ماء البحيرة الضارب على الواح الغسيل الخشبية الداكنة الزلقة وكأنها مغطاة بطبقة من الصابون ، والصراخ الزجاجي الخجول لطيور الزمير على شجرة البتولا ، والاوراق المتساقطة من هذه الشجرة ، وفرحه الذي بلا سبب ، والشعور الطافح بالقوة والعافية ، والنظافة ...

ولم يكن اليوشكا يعرف ان هذه الفتاة ذات الثلاثة عشر عاماً ، والتي لم يكد يتعرف عليها ، ولا يعرفها ، لن ينساها ، بل بالعكس ، سيظل يتذكر اكثر فاكثر ملامحها أيضاً ، وكأنما قد صفت وصارت اوضح ، وتصبح مرئية اكثر فاكثر ... وسيكون في حياة اليوشكا حب ، وليس واحداً ، لان من المشكوك فيه ان يكون للانسان حب واحد ، ولكن مع ذلك لن يقول اليوشكا حتى حين يقع في اعظم حب ، واقوى حب له ان هذا هو ما كان يود ان يقع فيه ، وسيظل هذا الحب نصف الطفولي ، الغريب ، الذي لا يفسر ، الرائع في نقاوته هو الحب الوحيد الذي كان يود ان يقع فيه ...

كم مرة سيتذكر اليوشكا في لحظاته السعيدة التي يبدو فيها كل شيء ميسراً ، ولا حاجة الى مزيد ، كم من مرة سيتذكر تلك الفتاة ، ويدرك انه كان من الممكن ان يكون احسن ، واروع ، ولكن لم يحصل ذلك ، وهو الملوم فيه ؛ وكم من مرة ، وهو يحلل تصرفاته ، سيشعر بالخجل امام هذه الفتاة ، وامامها فقط ، وليس امام اي شخص آخر ؛ وكم من مرة سيقول لنفسه في الاوقات الاخرى

حين يصاب بالخيبة ويتعذب : «لقد صادفتني اشياء كثيرة حسنة!..» وستكون الاولى بين كل الاشياء الحسنة التي صادفته في الحياة ذكراه عن الفتاة التي التقى بها على البحيرة صباحاً ...

سارا نحو البيت ؛ ولم ير هو فيرا ، ولم يسمع وقع خطاها وراءه ، بينما كان قلبه يدق بين ضلوعه : «هي هنا ... هي هنا» ... وتشكى باشكا من مصيره المرير ، وتحدث كيف تضغط عليه «النسوان» — لا يدعنه يخطو خطوة واحدة بحرية ، مواعظ كثيرة من الصباح حتى المساء ، ويكره على ترك البيت رغم ارادته — وابتسم اليوشكا وقال لنفسه ان هذا الغجري ، في الواقع ، فتى رائع ، دعه يلعن اخواته ، ولكن ، على اية حال ، يبدو انه يحبهن ، كما ان اخواته فتيات رائعات محبوبات.

و«الام دوسيا» استقبلته عند مدخل البيت ، واجلسته الى جانبها على الدرجة ، وأخذت تسأله بلهفة من هو وكيف ومن اين ، وابتسم هو ثانية وفكر اية امرأة طيبة هي رغم هيئتها المهيبة الضابطية .

وجلس على المائدة (كانت البطاطس الهشة اللامعة المقطعة لذيذة جداً ، وكذلك كان الخبز المخَرّم ذو الطحين الرمادي العالق على قشرته ، والحليب الكثيف المنسكب في القدح بشلال بطيء كسول !) ولم يندهش قط حين عرف ان فيرا ستذهب معه الى اوزركي . اذ لا يمكن غير ذلك في هذا الصباح السعيد ، ولم يكن بحاجة الى استمالة التوفيق ، فالتوفيق نفسه بانتظار اليوشكا في كل مكان ...

وبعد الفطور بوقت قصير هسّ محرك خفيض تحت النوافذ هسيساً حريرياً ، وبربر ، وتوقفت عند مدخل البيت سيارة « فولغا » سوداء لامعة لها سقف ابيض . ومرة اخرى كان هذا شيئاً طبيعياً : اذ لم يكن بوسعهم ان يسافروا اليوم في عربة ما قبل الطوفان تلك ، ولم يكن بوسعهم ان يسافروا على مركب قذر المنظر ، وحتى لم يكن بوسعهم ان يسافروا في سيارة الاب القديمة من طراز « بوبيدا » بل كان يجب ان يسافروا في صباح اليوم في هذه السيارة العظيمة اللامعة المترفة .

اجلسوا ستيبا وماشنكا ذات الستة اعوام في المقعد الامامي عند السائق . وجلس اليوشكا وفيرا في الخلف .

كانت اريكة « الفولغا » المغطاة بمفرش من الخام عريضة رحبة تسع لثلاثة اشخاص دون ضيق ؛ الا ان اليوشكا، على اية حال ، أحس بأن فيرا قريبة جداً منه، قريبة بشكل غير متوقع وباعث للرهبة ! وتحرك اليوشكا الى حافة المقعد ، وانضغط على الباب ، ومع ذلك وقد مسّ فستان فيرا القطني يد اليوشكا (فقد بسطته فيرا وهي جالسة) ، ولاح مرفقها المدبب ذو الثغرة، والجلد المجعد قريباً جداً ؛ وسمع اليوشكا تنفسها ، واحس برائحتها ــ رائحة ثوب قطني كُوِي قبل حين ، ورائحة ماء البحيرة وشعر رطب بعد السباحة ؛ واتكأت فيرا على ظهر المقعد ، وانتقلت حركتها عبر اللوالب الصارفة ، عبر قماش المفرش الخامي الى كتف اليوشكا وكادت تحرقه ...

في البداية لم يستطع اليوشكا ان يلتفت ، ولم يستطع ان ينظر الى فيرا . اجبر نفسه على النظر الى الامام : هذه المرآة الصغيرة فوق لوحة المقاييس ، كرر اليوشكا في نفسه كالدعاء ، وهذا مقياس السرعة ، انا اعرف ما هو ، وهذه نفاضة السيكائر المطلية بالنيكل ذات الغطاء المخدش ، ولكن فجأة ظهرت صورة فيرا على المرآة

الصغيرة ، وعلى زجاجة مقياس السرعة الضاربة الى الزرقة ، وعلى غطاء النفاضة ، وحوّل اليوشكا بصره ... تحدثت الاخت الكبرى ناديجدا الى السائق وقتاً طويلاً عن شيء ما ، وكان لا يجوز النظر اليها ايضاً ، لان الاخت الكبرى والسائق عاشقان بالطبع ، وكان واضحاً كيف انهما يخافان ان يمس احدهما الآخر ، وكيف انهما لا يستطيعان ان يفترقا .

واخيراً جلس السائق على مقعده ، وودعت « ماما دوسيا » اليوشكا وستيبا ، وهمست لفيرا : « اذن لا تنسين ؟ نمرة اربعين ، ثالث مقياس ! » وتحركت السيارة بنعومة وانسياب . رفعت كاتيا وداشا الاختان التوأمان يديهما بحركة واحدة وودّعت الضيفين ؛ وارتفعت « ماما دوسيا » فوق البنتين وكأنها صعدت درجة ، ولاحت الآن كالحة هي ايضاً ؛ ورمى باشكا الرحّال ، وكان جالساً على السياج ، قطعة تفاح في اثر « الفولغا » ...

ادار اليوشكا رأسه ، والتقت عيناه بعيني فيرا .

كانت عيناها سوداوين غجريتين فعلا ، وهنا ، في قلب سوادهما كان شيء ما يلمع باستمرار مثل لمعان المطر على اسفلت ليلي مبلل .

ظهر ان الاميرة ماشنكا متقدمة بالنسبة لعمرها بشكل غير اعتيادي ، وعارفة . وقد اندهش ستيبا كثيراً . لم تكن هذه المرة الاولى التي تركب فيها مثل هذه السيارة الملوكية ؛ وقد زارت مركز المنطقة اوزركي اكثر من مرة ، وفي وسعك ان تتصور انها سافرت حتى الى المدينة حيث يعيش ستيبا .

تحدثت ماشنكا بلهفة عما سيجد ستيبا امامه في السفر ؛ في اوزركي توجد محطة باصات في الميدان الرئيسي ، وهناك يجب انتظار الباص رقم ثلاثة اعواد (لم تستطع ماشنكا ان تنطق بهذا الرقم الكبير «١١١» ، ولكنها استطاعت ان تصف بشكل جيد) . ويجب الجلوس في المقاعد الامامية حيث يكون الاهتزاز اقل، والرؤية احسن ؛ والسفر يستمر وقتاً طويلا جداً ، بحيث تلحق ان تجوع ، ولكن في الطريق محطات ، ويمكن ان تشتري شيئاً لذيذاً .

ان الاميرة ماشنكا انسان شاهد الكثير ! ولكنها تعرف ايضاً سلة من الاشياء الاخرى .

ستيبا ، مثلا ، لا يستطيع ان يحزر لماذا تذهب فيرا الى مخزن المركز ، بينما عرفت ماشنكا كل شيء

مقدماً . اليوم يُشترى للاخ باشكا بدلة مدرسية ــ سترة ذات صفين ، وبنطلون نمرة اربعين ، ثالث مقياس . وباشكا لا يستحق بسلوكه ملابس جديدة ، ولكن « ماما دوسيا » الطيبة (الملكة العادلة) اقتصدت من ميزانية البيت الفلوس اللازمة ، والآن تقدم لباشكا مفاجأة سارة . وبالطبع حين يرتدي باشكا البنطلون الجديد لا يهرب من البيت بعد ...

نعم ، كانت الاميرة ماشنكا اعقل الاخوات ، واجملهن ، واروعهن ! وقد تأكد ستيبا من ذلك مرة بعد اخرى . وكان يريد كثيراً ان يظهر فرحه الشديد بفضائل ماشنكا . ولكن كيف يفعل ذلك ؟

لاحظ ستيبا اليوم ان الكبار لو يطيب احدهم للآخر ينظرون في العيون قبل غيرها طويلاً وبعناد . وقفت الاميرة ناديجدا وولي العهد السائق في الصباح نصف ساعة قرب السياج ، وتمعن احدهما في الآخر . والآن يجلس الاخ الكبير اليوشكا ، والاميرة فيرا وطوال الوقت يتبادلان النظرات . ألعل ذلك ما يجب ان يكون ؟

امسك ستيبا بيد ماشنكا ، وقربها منه ، وتفرس في عينيها الشبيهتين بزرين صغيرين . وفي البداية نظرت

ماشنكا اليه ايضاً في اهتمام متوقعة شيئاً سيلي ذلك ، ثم فهمت كل شيء ، فقد كانت ذكية بشكل خارق ! — وقالت :

— البحلقة مضرة ، تنشق العين .

٤

لطيفاً ، لطيفاً بدأ هذا اليوم — لم تقع لاليوشكا مثل هذه الايام من قبل ... سارت السيارة مسرعة على الجادة الرملية المبللة شاقة الهواء ، فكان مسموعاً كيف يهدر شقاه الممزقان . وكرر اليوشكا مع نفسه : «آه ! ما اروع ذلك ! انا ايضاً اريد ان اسوق مثل هذه السيارة ، ساتعلم حتماً ، واسوق مثل هذه السيارة ...» ، تحدثت فيرا معه محوِّلة اليه عينين لامعتين منتعشتين . «في عينيها حبيبات ألق ، مثل مطر على اسفلت — كرر اليوشكا مع نفسه — اين رأيت المطر يرقص في الليل على الاسفلت هكذا؟ ..» ، وسارت في الجادة ناقلات الاخشاب مثقلة بالروافد في هدير ولهاث ، وحين لحقت بها «الفولغا» عتمت نافذة السيارة اليمنى لحظة ، وتلوى

الدخان ، ولطمت رائحة بنزين محترق مباغتة وعابرة ، ثم لاحت عجلة مضلعة وكأنها من حديد ، مغطاة بالوحل ، وعادت قمرة السيارة الى نورها الاول . وفكر اليوشكا : « اية قوة وحشية ، وكم يصعب اخضاع هذه القوة لك كما يبدو ، وقيادتها ، ولكن مقابل ذلك كم هو لطيف هذا العمل الرجولي المرعب ... »

والى جانب ما رآه اليوشكا الآن ، والى جانب كل الانطباعات كان صباح اليوم يسير منفرداً بنفسه غير مشتبك بشيء ، وكأنما وحده مضاءاً بضوء الشمس ؛ نزلت فيرا الى البحيرة من درب رطب لزج بالطين ، وركضت القدمان الحافيتان بمرح خائف على حافة الماء. ورأى اليوشكا الفستان الاحمر في حرش اخضر رطب ؛ والفستان الاحمر على الرمل الاصفر ، والفستان الاحمر عند الماء ؛ ومسَّد الموج على آثار الاقدام الضيقة على الشاطئ ، وتحللت ممسوحة ؛ وسبحت فيرا صارخة بشيء ما ، متصايحة مع باشكا ، وسار الضباب في اثرها ببطء والتحم غير متراجع . « هي هنا ... هي هنا ! » دق قلب اليوشكا في صدره .

كان هذا الطريق مرحاً مهرجانياً بشكل غير اعتيادي، الا ان اليوشكا قد أحس في وسطه بقلق مبهم ... مثل توجس ، مثل توقع شيء مقلق ... وكان يحدث ذلك له حين كان يسمع موسيقى (كان يحب الموسيقى ويفهمها منذ صغره ، منذ ان كانت شقتهم باردة ، وكانت امه تضجعه في فراشه في ساعة مبكرة ، فكان يستلقي مرتدياً جوربه وقميصه ، تحت بطانيتين ثقيلتين ، ويصغي الى مكبر الصوت الاسود القديم المثقب السماعة المرتعش الصوت بعض شيء يرسل الانغام في المطبخ من خلال الباب ، في تلك الاعوام كانوا غالباً ما يذيعون موسيقى سمفونية جدية) . وفجأة ، وسط الانغام السريعة المرحة الواضحة ينسل قلق لم يعبر عنه شيء بعد ، وحتى هو لا صوت ، بل مجرد توقف ، مجرد مكان لصوت مثير القلق الآتي ، ولكن اليوشكا كان يتوجسه ، وينتظره بارداً ...

ماذا حدث الآن في الطريق ؟ ما الذي أثار هذا القلق المفاجئ ؟ هل لأن اليوشكا حدث فيرا عن ركوبه « غروزني » فعاد الى الذاكرة وتردد بلمحة عين رعب الامس ورهبته ؟ ام لأن ناقلات الخشب كانت تتحرك

في الطريق هادرة بصوت عالٍ ثقيلة مرهقة ، واحدة وراء الاخرى ، واحدة وراء الاخرى ، وفي رتابتها العامة ، في هديرها المتشابه ، وفي لامبالاتها البلهاء التي كانت تتقهقر فيها وتبتعد كان شيء غير لطيف ؟ ام لانه ، في آخر الامر ، صار من الصعب الآن على سائق « الفولغا » سيرغي ، او « العم سيرغي » كما سمته الاخوات ان يسوق السيارة ؟ من المحتمل انه كان سائقاً ممتازاً ، استاذاً ، ولكن قدمه مرضت في هذا اليوم ـ القدم اليمنى التي تدوس على دواسة البنزين وتضغط على الفرملة اذا اقتضت الفرملة ؛ وقد رأى اليوشكا ان سيرغي يعرج في الصباح . وقد كان يحاول ان يخفي عرجه حين ينظرون اليه ، ولكن اخفاء ذلك لم يكن سهلا، وبين الحين والآخر كان سيرغي يقطب ، ويشتم دون ان يخرج صوتاً ، شفتاه تتحركان فقط ... فقد يكون هذا ما اقلق اليوشكا ، او لربما لاحظ دون وعي كيف كان سيرغي يقطب عند كل منعطف ، عند كل صعود في الجادة ؟

على مسافة قريبة من اوزركي لحقت « الفولغا » بالعربة المضفورة من الاغصان . كان انتون تيموفييفيتش

بسترته المشمعة ، وطبيبة ذات النظارة (وقد عرفها اليوشكا في الحال رغم انه رآها يوم امس في الظلام قرب النار فقط) جالسين جنباً الى جنب على القش المهشم يهتزان في توافق مع عدو الحصان غير السريع . وأوقف سيرغي السيارة ، وتحدث قليلا . قالت الطبيبة انها أرسلت برقية الى ام اليوشكا ، واستفسرت هل سيضيع الاخوان في المدينة كما ضاعا في النهر ، ومزحت ، ونظرت هي ايضاً الى حذاء سيرغي .

ـ هل توجعك قدمك ؟

ـ لا ـ قال سيرغي ووطأ الارض بقدمه ـ اذهب لارقص مع الخطيبة .

ـ يجب الحذر . هل قيادة السيارة صعبة ؟

ـ ابداً ، ليست هذه ناقلة اخشاب .

ـ احذر ، يا بطل .

ـ انا حذر ، يا آنا اندريفنا ...

وابتسم سيرغي ووطأ الارض ثانية ، ولكن اليوشكا كان واثقاً من انه لم يكن في ذاك المرح . عنّ لاليوشكا في ذهنه : «ليس بدون سبب ان تتقصى الطبيبة ايضاً ... ولكنه شاطر على اية حال ، فتى اصيل ، اذا كان لا يشتكي ، ولا يظهر ألمه ...»

كان الميدان الرئيسي في اوزركي اشبه بتقاطع طرق منه بالميدان . لم يميزه عن مفارق الطرق الاخرى الا النافورة الصامتة ، وحوض الزهور العالي .

والى اليسار ، وراء سياج اخضر كانت تضج سوق كولخوزية نشيطة نشاط الاسواق في الخريف ، وقد تزاحمت عند بوابته العربات المحملة بالبطاطس والكرنب ، والتفاح الصغير . والى اليمين مقابل السوق لاحت آنق بناية في اوزركي مصبوغة بعصفرة طازجة : انها مطعم « الراحة » ؛ وكان ما يزال مغلقاً ساكناً شبيهاً بعربيدنائم ظل يعربد في الامس الى ساعة متأخرة من الليل . كان المخزن العام للمنطقة يقع لصق المطعم في مخازن التجار سابقا. كانت جدرانه الآجرية سميكة جداً ، وهائلة جداً على قاعدة عالية حتى كان يفوح في الصيف برداً رطباً ، وكأنما خارج من سرداب ؛ وفي النوافذ نصف الدائرية ذات الاعمدة المنتفخة القديمة كانت تطل اجهزة التلفزيون الجديدة ، والمكانس الكهربائية بغرابة وشذوذ ، ولمعت بكمد ، كالالمنيوم ، بنادق للصيد تحت الماء مصوبة الى المارة تماماً ...

وتجاه المخزن العام تقريبا كانت تقف القمرة

الخشبية لمحطة الباصات التي ألصقت عليها بتزاحم ملصقات حائلة اللون . بينما تحلق حول القمرة مسافرون في انتظار الباصات جالسين على اكياس ، او حقائب خشبية ، او على الارض مباشرة . وكانت قاطعة التذاكر بمحفظتها الجلدية الشبيهة بجعبة الصيد تبيع اشرطة التذاكر مقدماً .

ولم تكن في الجهة الرابعة للميدان بيوت ، ولا مخازن ، ولا اسيجة ، فقد كان هناك منحدر تل نما عليه الارقطيون ، وحشيشة القريض ، والحور الرجراج الفتي ، وفي الأعلى ، لاحت من وراء اشجار الغبيراء المتهدلة كنيسة بيضاء تحت سقف سماوي حديدي نجمي ، وهناك ، في الأعلى ، سارت ناقلات الخشب على الجادة المسحوقة المداسة معولة عويلا مجهداً ومقرقعة باصقة الدخان . وبعد المطر أصبح منحدر التل غير صالح للسير تقريباً ، لقد كان الرصيفان الممزقان المحروثان بعجلات السيارات ، والارض المقطعة العشب ، والالواح ، والاغصان المقطوعة البارزة من الوحل شاهدة بصمت على المشاق التي يكلف السواق صعود هذا المرتفع ...

اغلب الظن ان ضجيج مفترق الطرق وحده كان

أهلا لان يتنازع مع اي ميدان كبير آخر . كانت الاغاني والانغام تنبعث من وراء باب المخزن العام ، وكان البائعون يديرون طوال اليوم اسطوانات مغرية ، وسواق العربات يشتمون ويتصايحون وهم يدخلون بوابة السوق الصاخبة ؛ وعلى قمرة محطة الباصات رنّ الجرس الفضي لمكبر الصوت مقرقعاً مهتزاً ؛ ولكن كل هذا اللغط والصياح والجلبة كان يغطي عليه هدير ناقلات الخشب المتورطة في الوحل على منحدر التل ...

اوقف سيرغي سيارة « الفولغا » وراء منعطف المطعم ، واطفأ المحرك .

— بسلامة الوصول ايها المواطنون ، هل ستبقين هنا طويلا ، يا فيرا ؟

— اشتري فقط . لو تقدر يا عم سيرغي ان تختار لباشكا بدلة ...

— حسناً ، ولكن بسرعة . والا فسأتأخر في الذهاب لجلب الرئيس .

— هل ستعود بنا الى البيت ؟

— في فترة الغداء ، لا استطيع في وقت ابكر .

— سننتظر . وسنرافق الولدين خلال ذلك .

ــ تعالا معنا ، ايها الثوران ــ قال سيرغي ذلك ــ ما تزال هناك ساعة ونصف تقريباً حتى يصل الباص .

خرجوا من السيارة سوية ، وقفلوها ، وصعدوا الى المخزن على درجات آجرية مثلومة ، وخلال شلال من الموسيقى يصم الآذان .

لعل ستيبا لم يؤاته الحظ من قبل ان يزور مثل هذه المخازن المذهلة . واذا كان قد زارها فمنذ زمن طويل ، في سن لا تُفهم فيها قيم الاشياء المعروضة امام العين . والآن قضية اخرى .

سار ستيبا وماشنكا في الطابق الاول حيث كانوا يبيعون الحاجات للكبار . وهنا كانت العيون تتخاطف النظر الى الاشياء :

على الجدران كانت قروانات من التنك تلمع وكأنها طليت بطبقة من الثلج ، قروانات رحبة تسع اية واحدة منها لجلوس ستيبا مع ماشنكا ، ولان يركبا فيها في نهر لوزا الى اية مسافة كانت . وبمحاذاة الجدران صفت اسرة حديدية بثبات عليها عدد كبير من الاكواز

والكرات اللامعة يكفي لتزيين شجرة كبيرة لعيد رأس السنة .

وفوق الاسرة تماوجت ابسطة لم يبق اي شيء لم يرسم عليها : اكاليل ورود ، سميكة وكثيفة مثل ثمار الكرنب ، ووعول ذات قرون تعدو بين قصور لها ابراج قرميدية ؛ وقطط سوداء منحوسة لها اربطة مخملية وكأن هذه الاربطة لم تصنع من الشرائط بل من الفوط الملونة السميكة .

ونصب تلفزيون على منضدة خاصة في ابهة وجمال ، كله ابيض تقريباً ونظيفا للغاية ، وحتى شاشته كانت تشبه نافذة مستشفى مطلية بالدهان الابيض ، والى الأعلى من التلفزيون تعلق حذاءان لباديان رماديان مرقطان مثل انبوبين من الاسمنت .

ولكن فضلا عن هذه الثروات تستطيع ان تلاحظ ، اذا دققت النظر في الاركان نصف المظلمة ، اكواماً من البضائع ، تلالا بكاملها : مرايا وفؤوساً ، سماورات ومصايد فئران ، زهريات بلورية ومكاوي، اسطوانات غراموفون ومكانس ...

وحين صعد ستيبا وماشنكا الى الطابق الثاني أدركا ان ما رأياه في الاسفل مجرد مقدمة الحكاية .

والحكاية تبدأ هنا، حيث كانوا يبيعون الحاجات للاطفال .

أخذت الاميرة فيرا، وولي العهد سيرغي ، والاخ الكبير اليوشكا يقلبون تلا من البنطلونات والستر الرمادية الموضوعة على منصة العرض . كم من المؤسف ان باشكا الرحال السابق لم ير هذا التل ، ولم يعرف اية بدلة مكتوب له ان يلبسها !

خلال ذاك فحصت ماشنكا وستيبا البدل قليلا . وكانت على مقربة منهما منصة عرض اخرى عليها لعب ، وهنا كان من الممكن الوقوف دون مغادرة المكان حتى ساعة اغلاق المخزن ... وانحنى امامهما زنوج منتفخو الوجنات ، وراقصات باليه بالتحية ، ونفخت ابواق مزينة معلقة في مسامير صغيرة ، وحمحمت سيارات لوري ، وأزّ قمر اصطناعي منطلق منشداً نشيده القصير « بيب-بيب ! » وانتفخت بالونات متعددة الالوان فخورات شاعرات بعظمتهن كلها ... ولم يعرف ستيبا المشدوه الى مَنْ يوجه انتباهه . اما ماشنكا فقد أختارت

بلحظة واحدة صديقتها ، وهي بالطبع اجمل واروع فتاة ثلج .

كانت فتاة الثلج كلها وكأنها صنعت من الثلج والسكر ، التمعت جبتها وقفازاها ، وقبعتها بلألاء سكري رقيق ... واشتاق ستيبا شوقا شديداً الى ان يلعقها . لا يمكن ان لا تكون حلوة ! كانت تتأرجح على صدر فتاة الثلج رقعة عليها كتابة غامضة : « دمية بلاستيكية » — وأجج هذا فضول ستيبا اكثر .

وقف مع ماشنكا حتى ظهرت من ورائهما فيرا وسيرغي واليوشكا .

وقالت الاميرة فيرا وهي تدفع ماشنكا :

— لنذهب . عندك لعبك في البيت !

ولم تفهم الاميرة فيرا ان مثل فتاة الثلج هذه لا توجد في البيت . ولم تر الاميرة فيرا باي الق سكري رقيق تلمع جبة فتاة الثلج وقفازاها وقبعتها . فلم تكن الاميرة فيرا ارهف الاميرات ...

وأشفق ولي العهد سيرغي فقال وهو يخرج الفلوس من جيبه :

ـ حسناً . لنجرب . هذا ثمن السيكائر لي ، وهذا ثمن تذاكر الباص لكما يا ثوران ... ماذا بقي ... اها . ممكن ... اعطنا دمية بلاستيكية !

وحصلت ماشنكا على فتاة الثلج . وفكر ستيبا طوال الطريق ، من الطابق العلوي حتى خروجهم من المخزن كيف يقنع ماشنكا لتذوق فتاة الثلج . انها في اغلب الظن حلوة بالضبط ، مثل الدندرمة !

نزلت ماشنكا من الدرجات ، ولحق ستيبا بها ، ومد يده يريد ان يتحدث ـ وفي تلك اللحظة صدرت خلفه صرخة تجرح الاذن ، واقترب شيء مظلم ـ وأزيح ستيبا جانباً بدفعة قوية .

تأخر اليوشكا عند باب المخزن تاركاً فيرا وسيرغي الى الامام . وبعد جو المخزن الرطب المعتم لاح له ضوء الشمس في الشارع ، والسماء المبيضة ، والاوراق البنية لاشجار الحور النامية قرب الجادة ساطعة بشكل خاص .

نزلت من منحدر التل ناقلة خشب محملة متحركة ببطء . ولم يلتفت اليوشكا الى ان الناقلة تنزل متحركة الى

الخلف ، وان صوت محركها غير مسموع . وحين وعى اليوشكا كل ذلك كان الوقت قد فات .

صارت الناقلة بموازاة المخزن ؛ وانحرفت العجلات جانباً في الطريق الموحل . وانقلبت كتلة روافد هائلة ، ومالت ؛ وانزلقت الناقلة في ساقية غير متمالكة نفسها ، واقتربت نهايات الروافد من جدار المخزن بسرعة متزايدة ، وهنا ، بين الروافد والجدار وقف ستيبا وماشنكا لا يريان شيئاً .

لا ، ليس بهذا الشكل .

... تأخر اليوشكا عند باب المخزن مقشعراً دون ارادته من الموسيقى التي كانت ترن هنا على اشدها . كان اليوشكا قد ترك فيرا الباسمة وسيرغي الحامل لفة ورقية يسيران الى الامام ، وخرج الى الشارع في اثرهما . كانت تجري في جلده رجفة خفيفة ، فقد مكثوا طويلا في المخزن الرطب المكتوم الهواء . وفكر اليوشكا في ذهنه : « كيف يشتغل البائعون هنا ؟ » وتنفس نفساً عميقاً طالعاً الى النور ، شاعراً بالاشعة الدافئة . وفي السماء ، فوق السوق الريفية كانت تدور حمامات في الهواء ، وكان

باطن اجنحتها الابيض ساطعاً جداً. يلمع بسطوع باهر تقريباً في السماء الفاتحة الزرقاء الملبدة بالضباب. وفكر اليوشكا: « كأنما تحت ابط كل حمامة مرآة » . وأجال بصره في الميدان : بالزحام عند السوق : والباص الملطخ بالوحل والمقبل على المحطة ، واشجار الحور النامية بمحاذاة الجادة ، ورأى ناقلة خشب خرقاء محملة الى أعلاها تنحدر من التل . وبرقت في خاطره فكرة : « لماذا تسير هذا السير الغريب ؟ .. » وبعد ان خطا خطوة نظر ثانية الى الناقلة : لم يكن هدير محركها مسموعاً ، فقد كانت الموسيقى وحدها تتردد في الميدان، وكان مكبر الصوت يرن فوق محطة الباصات مسموعاً بوضوح كاف. ولم يكن محرك الناقلة مشتغلا ، والظاهر انه انطفأ عند الصعود . ولم يكن في وسع هذه الآلة الهائلة ان تثبت وتفرمل على المنحدر الذي مزقته العجلات ، فانجرت الى الاسفل ... وفكر اليوشكا : « يا للشيطان ، رهيب ... » وقد أدرك بالفعل ، وفهم الموقف متراجعاً الى باب المخزن ، وصارت الناقلة بموازاة المخزن ، وهنا ، في البركة الموحلة انحرفت العجلتان الخلفيتان جانباً . وبدأت كومة الروافد كلها

على ظهر الناقلة تتقلب ، وكأنها في دوامة الماء ومالت الروافد ، وانزلقت العجلات المبللة المغطاة بوحل كثيف الى ساقية . ورآى اليوشكا نهايات الروافد تقترب من الحائط الآجري . وفي المسافة الصغيرة بين الروافد والحائط ، وقف ستيبا وماشنكا لا يريان شيئاً منحنيين على الدمية . كان بوسعهما ان يقفزا لو القيا نظرة الى الخلف فقد كانت هناك فرصة للخلاص لما تزال . الا انهما لم يلقيا نظرة ، وكانت المسافة بين الروافد والحائط تتناقص بسرعة ... وصرخت فيرا ، واندفعت على الدرجات الى الاسفل . الا ان سيرغي يلقي اللفة ارضاً ويقفز الدرجات ويسبق فيرا ، ويندفع نحو الطفلين . وكان بوسعه ان يقفز الى مكان سليم ايضاً لو لا عرجه .

لا ، ليس بهذا الشكل .

... علق البائعون اضخم مكبر صوت على باب المخزن ؛ وكان يصيح بجلجلة شديدة حتى ليشعر الانسان بالقشعريرة دون ارادته ، وكأنما تناثر عليه رذاذ . ترك اليوشكا فيرا تسير امامه ، وقد ابتسمت وتحدثت بشيء ما ، ولكن الكلمات ضاعت في الموسيقى

المجلجلة ، وفي ثنايا الاصوات المغنية، وصاح سيرغي السائر وراء فيرا باسماً يحمل لفة ورقية كبيرة : «انها تنفذ الى الدماغ !.. » ووراء باب المخزن أحس رأساً بالدفء والطراوة ، وسرت في جسم اليوشكا رجفة لطيفة للحظة ، وكأنه لم يخرج من بناية نصف مظلمة لها رائحة قبو ، بل وكأنه خرج الى الشاطئ من ماء بارد تواً . «الباعة في وضع لا يحسد عليه ، كيف يعملون هنا ، العجباء ؟» قال ذلك لنفسه متنفساً هواء الشارع بتلذذ ، شاعراً برائحة الاحجار الدافئة ، ورائحة القش والارض المبللة . كانت الشمس مرتفعة ، والسماء الشاحبة صاحية تماماً على نحو خريفي ، الا من ضباب خفيف كأنما هو اثر لسحب الصباح كان ما يزال معلقاً في السمت . وفوق السوق ، وفوق الميدان كانت الحمامات تحوم متقلبة ، محلقة الى شاهق مرة اخرى ؛ واجنحتها الزرقاوية المغبشة تنطوي ثم تتفتح عن لون باطنها الساطع العاكس للنور . وفكر اليوشكا : « آه ، ما اجملها ، كأنما تحت آباطها مرايا مخفية ... » ولاحظ ان فيرا تنظر ايضاً الى الحمام ، وأفرحه ذلك ، وكأنما فيرا وافقته على شيء ما . وبدا له الآن الميدان الصغير

المهمل ليس بالمزري جداً ـ على الاقل كانت هامات اشجار الحور القليلة الاوراق الصهباء بديعة ، ثم تلك الضوضاء الحية عند بوابة السوق ، والباص المكعب الملطخ بالوحل حتى السطح ، المنتظر بصبر حتى يحشى بالركاب ، وحتى تلك العرصة على منحدر التل ازدهرت فجأة ، وعاد اليها شبابها من حبات الشمس الحية ... ونزلت من التل ناقلة خشب محملة بكومة من الروافد قاعدة على نوابضها . وفكر اليوشكا : « لماذا تسير الى الخلف ؟ » ونزل على الدرجة الى الاسفل والتفت ثانية . لم يكن محرك السيارة مشتغلاً ، ولم يكن الهدير المألوف موجوداً . وزعقت اصوات الغراموفون : « موعد غرامي على القمر يا حبيبي ! » وخن فوق قمرة الباصات مكبر صوت فضي : « السباخ البلدي المخلوط بالخث انفع نوع للسماد ... » . وفكر اليوشكا : « شيء ليس على ما يرام ! » وحزر في الحال : انطفأ محرك الناقلة . انطفأ المحرك على المنحدر ، هناك ، حيث ما تزال خيوط الوحل تتناثر ، حيث تبرز رؤوس الاغصان والالواح من الوحل الزلق الذي لا يجف ابداً. ولم تثبت الناقلة على المنحدر ، ولم تنفع الفرامل ،

وانحدرت الآلة الرهيبة الى مفترق الطرق ... والسائق عاجز عن ان يفعل شيئاً . الاشجار من يمين وشمال ، والسرعة تزداد ، والاستدارة مستحيلة ، والتوقف ايضاً ... يمكن فقط قيادة الناقلة الى مكان خال ، ومحاولة تجنب الاصطدام . وفكر اليوشكا متجمداً : « من حسن الحظ لا توجد سيارات في الاسفل . ولكن فجأة قد يقفز شخص من وراء المنعطف ... » . وصارت الناقلة عند المخزن بسرعة غير متوقعة ، وعلى العشب انصب ماء البركة الكدر ، وانحرفت العجلتان الخلفيتان جانباً ، وراحتا تزحفان الى حافة الطريق اكثر فاكثر ، ووقعتا في الساقية . ورأى اليوشكا نهايات الروافد البيضاء ، وكأنها انتفخت وهي تتقدم ... وقفز السائق الى مرقاة الناقلة ، ثم عاد فدخل القمرة في الحال ، كان وجهه متلوياً ، وادار الدفة بحدة ، وبليّات شديدة ، ونهايات الروافد ظلت تتحرك ، وتكبر ، وتقترب بانحراف نحو الحائط ، نحو المكان الذي وقف فيه ستيبا وماشنكا ، ورأى اليوشكا وفهم في الحال ماذا سيحدث اذا هو لا يندفع الآن ، في هذه اللحظة مخترقاً الروافد ، ليجر الولدين ...

فهم كل هذا في هذه الثانية الطويلة ، ولم يندفع ، لم يستطع اجبار نفسه . ثم صرخت فيرا ، واندفعت على الدرجات الى الاسفل ، ورأى اليوشكا سيرغي عند الروافد مباشرة . كان سيرغي يركض بمحاذاة الجدار ضاغطاً على ساقه اليمنى ، فاتحا فمه من الألم . ونط الى ستيبا ، ودفعه جانباً ، وأمسك ماشنكا ، وهنا أطبقت نهايات الروافد البيضاء ، ولم يستطع سيرغي ان يلقي ماشنكا ، ولا ان يقفز . وبقيت فرصة وحيدة ، آخر طرفة عين ، ورأى اليوشكا كيف ارتفعت ذراعا سيرغي ورفعتا الطفلة فوق الروافد ، أعلى من الروافد ، وصدرت ضربة هشة على الحائط .

... وعانى اليوشكا كل ذلك مرة اخرى ، وهو جالس على مصطبة في الحديقة الامامية للمستشفى . والى الخلف بقي الجمهور المتراكض نحو المخزن ، وصرخات النساء ، والاسطوانة التي صمتت فجأة ، والسكون الذي عمّ الميدان ، الا مكبر الصوت عند قمرة الباصات الذي أعلن بصوت مسموع : «... للحصول على غلات

عالية من الخضروات تطبق الهندسة الزراعية المتقدمة » ، وبقي الى الخلف العشب المداس النحيل المبلل الذي اضجعوا عليه سيرغي حتى جاءت سيارة الاسعاف ، ووجه الطبيبة آنا اندريفنا المحمر في شعور بالذنب ، وآخر ما رآه ساق سيرغي الصناعية الجلدية التي تلمع عليها بحدة الالواح المعدنية المطلية بالنيكل ، وقد فكوا هذه الساق الصناعية ، وفيما بعد نسوا لاستعجالهم ان يضعوها في سيارة الاسعاف .

ضمدوا ستيبا في المستشفى ، فقد سلخ عند وقوعه ركبتيه ومرفقه ؛ واضطروا الى تضميد ماشنكا ايضاً ، ففي اللحظة التي ضربت فيه الروافد الجدار ضربة هشة (واليوشكا لم ير ذلك ، فقد قلّص عينيه ، وأغمضهما) ارتجفت الذراعان الحاملتان لماشنكا ، وارتختا ، ووقعت الطفلة من الروافد على الارض . ولكن حتى لو لم تكن هناك حاجة الى ضمادات ، ولم تكن هناك حاجة الى تهدئة فيرا التي فقدت وعيها تقريباً ، فان اليوشكا كان سيذهب الى هنا على اية حال ، ويجلس على هذه المصطبة ، وينتظر مثلما ينتظر الآن .

وتحدثت فيرا عن سيرغي مجهشة غاصة بتقطع الانفاس ، وكان من الضروري لها ان تتحدث الآن ، ان تصرخ ـ ... اختها الكبرى وسيرغي تعارفا منذ زمن طويل ، قبل عدة سنوات ، ولكن سيرغي كان يؤجل الزفاف دائماً لانه في البداية اراد ان يعود الى عمله ، وكان قبل خدمته في الجيش يسوق ناقلة خشب سياقة ممتازة جداً ، وجرح في بودايست ، قبل اربع سنوات ؛ وجاء الى البيت على عكازتين ، ولكنه كان يأمل دائماً بأنه سيستطيع الاستغناء عنهما ، ويجلس وراء دفة القيادة ثانية ؛ وتحققت امنيته ، وفي الصيف الحالي صار يشتغل ، حقاً ، ليس على ناقلة خشب ، بل على سيارة « الفولغا » عند رئيس دائرة البناء ، وقال سيرغي لناديجدا ان هذه بداية فقط ، وانه سينتقل ، على اية حال ، من السيارة الخفيفة الى ناقلة خشب كما كان قبل دخوله الجيش ؛ وحصلت الطبيبة آنا اندرييفنا له على ساق صناعية اجنبية جديدة ، ولم يعد سيرغي يعرج ، ولم يره احد يعرج ، وفي الخريف ، في عيد ثورة اكتوبر كان يجب ان يتم الزفاف ...

... سارت السيارة على الجادة الرملية المبللة بضجيج خاطف ، صاعدة هابطة . ورأى اليوشكا سيرغي وراء دفة القيادة ، وكانت الريح تصفر في الشبابيك ، وشقاها يهدران من يمين وشمال والحصى الصغير يضرب غطاء مقدمة السيارة والابواب ، وتأرجح وتراقص مؤشر السرعة العصبي في العلبة الشفافة ، وشدّ اليوشكا بقبضته على ظهر المقعد ، بينما جلس سيرغي في غير اكتراث ، وبحذاقة . لا يكاد يمس باصابعه الدفة اللامعة بألق ، احياناً فقط كان يبدو من وجه سيرغي المتوتر ، وانفاسه القصيرة ان من الصعب عليه سياقة السيارة ... كان هذا الطريق مرحاً بهيجاً لاليوشكا ، ولكنه كان امرح وابهج لسيرغي، فلا غرو في ان تكون جلسته على هذا النحو من عدم الاكتراث ، وخلو البال المقصود ، ولا غرو في انه كان ينظر في الشباك بخفة الروح وكأنما بشيء من التسامح الى ناقلات الخشب الهادرة ، المبتعدة الى الخلف باذعان ، مختفية في الدخان السخامي ... ثم كيف سار هو في قاعات المخزن مديد القامة منتصبها ، بقميصه العسكرى التي يطوقها الحزام بشدة ، الى جانب فيرا الخفيفة ؛

حاولت ان تجاريه في خطواته ، وكان هو يخطو خطوات جميلة مَرِناً ، وبلا عرج قط ... ثم كيف احتدم هو ، وكم كان متذمراً حين أخذت الطبيبة آنا اندريفنا ذات النظارة تسأله فجأة : هل توجعه ساقه !..

وقال اليوشكا بعنف :

ـ انا المذنب ، انا الذي جبنت ، ولم أندفع محله !..

وكرر ذلك للطبيبة ولستيبا ؛ ولم يخطر ببال احد الظن في ان يكون اليوشكا جباناً ، ولم يفكر احد في لومه ، فكان يكرر : «انا المذنب ، انا الذي جبنت ، ولم أندفع محله !..»

كانت بين الحين والآخر تصعد ممرضات الى مدخل المستشفى ؛ ووصلت عربة نقل عليها صليب احمر ، وقفز من مرقاتها شيخ يشبه نقار الخشب يبدو انه طبيب ايضاً ، وسار الى المستشفى بسهوم غير مجيب على التحيات ، واختفى وراء الابواب . وظهرت الدكتورة آنا اندريفنا عدة مرات الى المدخل ، ونظرت الى اليوشكا وفيرا ، وكأنما كانت تريد ان تقول شيئاً لهما ، ثم تختفي .

ـ انه سيعيش ، أتسمعين؟.. ـ همس اليوشكا لفيرا الباكية ـ انه سيعيش ، سيعيش ...

وصدق بكلماته وأمل ، بينما هو نفسه رأى ، في هذا الوقت ، وجه سيرغي المكشر المتلوى من الألم عندما كان سيرغي يركض بمحاذاة الحائط ، ووجهاً آخر ابيض جبسياً تقريباً، جامداً على نحو غريب ذا عينين نصف مغمضتين منعكستين على زجاجة سيارة الاسعاف .

ثم حين قادت فيرا ماشنكا ، وبقي اليوشكا وحده أجبر نفسه على ان لا يبكي . وأخذ يفكر لماذا قفز سيرغي نحو الطفلين ، بينما هو ، اليوشكا ، لم يفعل ذلك بالرغم من ان ذلك كان اسهل عليه بكثير .

انه لم يعتبر نفسه جباناً ، فقد كانت في حياته وقائع ابدى فيها جرأة . فمثلا تراهن اليوشكا في ربيع هذا العام مع لوفكا ايسايف زميله في الصف على ان يتسلق الى شقته من الشباك . كان لوفكا يعيش في الطابق السادس من بيت كبير ، وقد ركض طلاب الصف كله

ليروا كيف يتسلق اليوشكا الى هناك ... صعد اليوشكا عن طريق سلم البيت المجاور الى حجرة السطح ، ووجد شباكها ـ ابيض مثلثاً ساطعاً في الظلمة على نحو لا يطاق ـ وصعد منه الى السقف . وحين انتصب ، ونظر الى الاسفل بغير قصد ، ارتخت ساقاه ، وصارتا قطنيتين . وفي الاسفل ، في القعر الواضح لاح الرصيف المحدّب رمادياً ، وسارت سيارات اللوري مسطحة ، وبدا اصدقاء اليوشكا الواقفون تحت قوس الفناء ، مثل اشخاص مصغرة على نموذج مصغر . كانت قطعة من الكلس المسطح تخشخش على السطح الحديدي ، وكانت تطنطن على مرزاب الامطار وتنزل الى الاسفل وقتاً طويلاً وبشكل معذب . الا ان الرفاق كانوا ينظرون ملقين رؤوسهم الى الخلف ، وينتظرون . وفات أوان التراجع . أطبق اليوشكا اصابعه الزلقة من العرق في جيبيه ، وانحنى ، وركض على صفائح السقف المقعقعة المنحنية . وكانت شقة لوفكا على مستوى واحد مع هذا السطح ، ولكن ، للوصول الى الشباك ، كان يجب القفز على افريز مائل غير مستو ، والسير عليه زهاء عشرين متراً ...

... سارت السيارة على الجادة المبللة بهدير ، وصفر شقا الهواء الممزق . وعتمت النافذة اليمنى ، وارتفع زئير ، واندفع دخان البنزين فتائل ، اما سيرغي الذي كان يدخن بتلذذ ملتفتاً نصف التفاتة فكأنما لم يلاحظ هذه الروافد المارة بتكاتف ، وهذه العجلات الحديدية المتوانية تترك ختمها على الرمل اللزج : كانت فرحة حذرة في عينيه المتقلصتين الوضيئتين ، وفي ابتسامته ، وفي حركات يديه الملوحتين الخشنتين ...

وكان الى جانبه وجه آخر ملتو ، مكشّر ، صارخ من الألم ؛ لا ، كان مزرقاً ، جبسياً ، كأنما هو فارغ من الداخل ...

... وقفز اليوشكا من السقف الى الافريز ، وسار تلك الامتار العشرين ملتصقاً بالحائط شاعراً تحت قدميه بخشخشة الآجر الرخو الذي تآكلته الامطار والصقيع . وبعد ان انسل الى الشباك ظلت تهزه قشعريرة لا تقاوم ساعة كاملة ، وجمد لسانه ... ولكنه انسل على اية حال ! والقيام بهذا لم يكن اسهل قط من ان يلقي نفسه تحت الروافد . ومع ذلك فقد اندفع سيرغي وحده ، ولم يتصرف ،

من المحتمل ، مدفوعاً بشجاعته . فالظاهر انه عرف ما لا يعرفه اليوشكا حتى الآن ؛ وراعى قانوناً آخر غير ميسر لفهم اليوشكا حتى الآن ... « وفي تلك اللحظة التي رفع فيها ماشنكا فوق الروافد » ــ فكر اليوشكا بذلك ورأى امامه ذراعين مرتفعتين بتوتر ، وصورة ماشنكا بفستانها المقلوب مرفوعة مسترخية في عجز ــ « في تلك اللحظة لم ينقذ نفسه ، بل أنقذها هي وحدها ... لماذا ؟ أحقاً ان حياة تلك الفتاة اعز ؟ لماذا استطاع سيرغي ان يقدم حياته ، ان يقدمها دون تردد ، وبدافع الواجب ؟ واذا مات سيرغي اليوم في ردهة المستشفى ــ انا لا اريد ، ولا اصدق انه سيموت ، ولكن اذا حدث ذلك فهل ستفهم ماشنكا في وقت ما انها تعيش على الارض بدلا من سيرغي ، بدلا من السائق البارع سيرغي الذي تعلم السير على ساق صناعية دون ان يعرج ، والذي كان يسوق السيارة في الطرقات الصباحية البهيجة؟ .. ».

ــ انه سيعيش ، أتسمعين ؟ ! انه سيعيش على اية حال ! ــ قال اليوشكا لنفسه ناظراً في الوجه الجبسي المتحجر الذي يهتز في خضوع على نقالة المستشفى ــ انه سيعيش !..

خرجت الدكتورة آنا اندريفنا من غرفة العمليات قبل الاطباء الآخرين . وخلعت نظارتها ، وقطبت وظلت وقتاً طويلا تفرك بيديها عينيها التعبتين قصيرتي النظر بعروقها الحمراء .

وفي ممر المستشفى كانت تقف على مساند النوافذ نباتات الفيكوس وشجيرات الليمون الضامرة ، وكانت اوراقها تتحرك وترتعش حين يمر بها احد . وفي الردهة البعيدة دقت ملعقة على قدح ، انه مريض يدعو الممرضة اليه . كانت آنا اندريفنا تشتغل في هذا المستشفى منذ ثلاثين عاماً تقريباً ، وفي كل يوم كانت ترى ، وهي تسير في الممر ، كيف كانت تتحرك اوراق الليمون والفيكوس ، وتسمع كيف تدق ملعقة على قدح في نفاد صبر . كان كل شيء مألوفاً لها حتى صرخات المرضى واناتهم ، القادرة على ان تخيف الرجل الغريب .

الا شيء واحد لم تستطع ان تألفه آنا اندريفنا خلال ثلاثين عاماً من العمل — موت مرضاها . فقد كانت تشعر بالذنب حين كان يحدث هذا ، حين كان يجب

الخروج الى مدخل المستشفى ، والقول لاقارب الميت : « مع الأسف ، لم نستطع ان نفعل شيئاً » او « هيئوا انفسكم للأسوأ ... » فقد كانت آنا اندرييفنا تعتبر من الواجب تنفيذ هذا الالتزام الصعب . اذ لا حاجة الى المماطلة في هذا النبأ الحزين ؛ فالحقيقة يجب ان تقال فوراً مهما تكن مريرة ، لانه سيأتي وقت يجب ان تقال فيه على اية حال ...

في الصيف الماضي مرضت ابنة آنا اندرييفنا ، وشخصوا اصابتها بالتهاب الزائدة الدودية ، وأدخلوا الفتاة الى المستشفى ولسبب مفهوم لم ترد آنا اندريفنا ان تقوم لها بالعملية . فقام بالعملية ، بدلا منها ، جراح شاب مساعد لها ، قام بها لا بسرعة كبيرة حقاً ، ولكن بنجاح تام كما أعلن فيما بعد . وشكرته آنا اندرييفنا سعيدة . وبعد عشرة ايام ماتت الفتاة . اذ لم تكن مصابة بالتهاب الزاهدة الدودية بل بالسرطان ، بالشكل الذي لا ينفع فيه اي تدخل . وبالطبع رأى الجراح مساعد آنا اندرييفنا كل هذا حالما بدأ بالعملية . ولكنه خاط الشق حسب كل القواعد ، التي يخاط بها الشق بعد عملية الاستئصال ، وقال لآنا اندرييفنا ان

العملية جرت بنجاح . وظلت آنا اندريفنا لا تعرف اي شيء تسعة ايام : بل لم تقلق قط – فلم يكن هناك غير ارتفاع ضئيل في درجة الحرارة لدى الفتاة ، وضعف عام . ذلك امر بسيط اذ ان الفتاة كانت ضعيفة دائماً . وأبلغت آنا اندرييفنا بالحقيقة في اللحظة الاخيرة حين لم يعد من الممكن اخفاؤها . وفيما بعد لم تقل آنا اندرييفنا شيئاً للجراح الشاب : ولم تلمه ، ولم تغضب منه بالرغم من انها لم تكن واثقة هل ان تصرفه كان صحيحاً ...

... خلعت مريولها ، ووضعته في الحقيبة لتغسله في البيت (كانت تغسل مريولاتها في البيت دائماً ، وتعودت على ذلك) ، وخرجت من المستشفى . كان يجلس على المصطبة في الحديقة الامامية ذانك الصبيان اللذان ضاعا في طريقهما الى المدينة . يبدو ان اسم الكبير اليوشكا ، واقتربت آنا اندرييفنا ورأته يقفز في عجالة متطلعاً اليها بترقب وأمل ... وتأثرت آنا اندرييفنا في التعبير المرتسم على وجهه . قالت :

– لا حاجة الى الجلوس هنا ، ستفوتان الباص الاخير .

– وكيف ... سيرغي ؟

ـ سيعيش معافى ـ قالت آنا اندريفنا وبعد ان صمتت قليلا أضافت : ـ يمكنكما ان لا تقلقان ، يا بطلان .

في المساء تقريباً ، في نحو الساعة السابعة جلس اليوشكا وستيبا في الباص ، وطلع الباص الى الطريق المبلط بالاسفلت ، وسار نحو المدينة سريعاً ، مخشخشاً بزجاجه ، تفوح منه بحرارة رائحة زيت ومطاط ساخن ، ووحل جف على حوضه ، مصراً بفراملة في المنعطفات .

ووراء النافذة مرت الحقول المسائية ، احياناً سمراء في شعث ، خالية تجلس فيها طيور الزاغ السوداء على الاحجار ، واحياناً محروثة ذات اخاديد متماوجة ، نظيفة كأنما مشطت بمشط . وتتابعت القرى الواقعة على الجادة تماماً ، ولاحت في نوافذ الباص خطفاً بيوت رمادية ، واطر نوافذ زرقاء ، وبركة يسبح فيها البط المتحفز الناظر بأبهة ، ولافتة مركز الدعاية من الخام الاحمر الحائل اللون ، وصوارٍ للتلفزيون مصنوعة بيتياً على اعواد مائلة ، وكلب يعدو امام جمع من الاطفال ...

نظر اليوشكا مسنداً رأسه على اطار النافذة ، وكان يشيع في جسمه كله شعور غير مألوف بالتعب

الحلو الطيب مثل تعب ما بعد المرض . وفكر اليوشكا بان الطريق الذي استمر يومين يدنو من نهايته . وقد سار ليس بالطريقة التي تصورها ، ولم يكن ساراً دائماً . فقد كان هناك ما هو مرعب ومرير ومثير . ومع ذلك فان اليوشكا ، وهو يتذكر هذا المثير والمرير ، يفهم بانه كان يجب المرور في هذا الطريق . وفكر اليوشكا : « لماذا سميت حياتي الصغيرة ، وتلك الحياة الكبيرة بنفس الكلمة ؟ وما هي الحياة على اية حال ؟ وماذا اعرف عنها ؟ وماذا يجب ان يعرف الانسان عنها ؟ انا الآن افهم ان حياتي الصغيرة مرتبطة بتلك الحياة الكبيرة ، وانا افهم ان هناك صلات بين جميع الناس على الارض . أمن المعقول ان ماشنكا وحدها مدينة لسيرغي الذي أنقذها ؛ لا ، بل ستيبا ايضاً مدين لسيرغي ، فقد وهبت الحياة اليوم له ايضاً ، كما وهب الحياة لي ايضاً انسان ما ، من اولئك الذين صرعوا في الحرب كأبي لوفكا ايسايف مثلا . ان الحيوات كلها مهداة من اناس ، ومدفوعة الثمن من قبل اناس ، وقد يكون في ذلك الشيء الاهم ؟.. ».

وتذكر اليوشكا المنطقة الضحلة عند بيجيتسي ،

والليلة قرب النار ، والبحيرة الضبابية في دفوريكي ، وفستان فيرا الاحمر في الحرش الاخضر ، والطريق الصباحي ، وحديقة المستشفى الامامية ، وعيني آنا اندرييفنا التي قالت ان سيرغي حي ... وشعر اليوشكا ان جميع الناس الذين تعرف عليهم ـ ربان المركب « غروزني » ، والطبيبة ، و « ماما دوسيا » وفيرا ، وسائق العربة انتون تيموفييفيتش ، وسيرغي الراقد في المستشفى ـ يفكرون هم ايضاً عنه الآن ، ولا ينسونه ...

التصق ستيبا بالزجاج ونظر بحب استطلاع الى اعجوبة اخرى . وسأل اليوشكا :

ـ ماذا هناك ؟

ـ انوار توهجت ـ قال ستيبا في بهجة ـ انها تحيينا . هل ترى ؟

محتويات

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب ، وترجمته ، وشكل عرضه ، وطباعته واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ٢١ ،
موسكو – الاتحاد السوفييتي


أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية


34
Bibliotheca Alexadrina
03000735